يحكون في بلادنا

عادل سالم

الكتاب : يحكون في بلادنا (قصص قصيرة)
المؤلف : عادل سالم
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٢٠١١/١٤٢٦٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 086 - 7

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والتوزيع

يحكون في بلادنا

قصص قصيرة

عادل سالم

يَحْكُونَ فِي بِلادِنا

يَحْكُونَ فِي شَجَن

عَنْ صَاحِبِي الذِي مَضَى

وَعَادَ فِي كَفَن

محمود درويش

الإهـداء

إلى زوجتي العزيزة زهيرة عقل...

التي تحملت عبء طباعة هذا الكتاب

وكتب أخرى سترى النور قريبًا،

وسهرت الليالي لإنجازه

عادل سالم

- وُلِدَ في البلدة القديمة من القدس في الأول من تموز (١٩٥٧).
- اعتُقِلَ من قِبل السلطات الإسرائيلية مرتين بتهم سياسية، وأمضى ٣٣ شهرًا خلف القضبان، تنقَّل خلالها بين سجون عديدة منها سجن بئر السبع وسجن نفقة الـ ةفراوي وسجن الرملة وسجن بيت ليد، وغيرها. وساهم مع كُتَّاب آخرين في تطوير الحركة الثقافية في السجن حيث شاركوا في تحرير بعض المجلات الاعتقالية المنسوخة باليد بالتعاون.
- فَرَضَتْ السلطات الإسرائيلية عليه الإقامة الجبرية عام (١٩٨٧) في القدس لمدة ستة أشهر حيث منعته من مغادرة مدينة القدس وفرضت عليه الإقامة في البيت منذ مغيب الشمس حتى شروقها.
- ساهم في مرحلة من مراحل حياته في العمل النقابي الفلسطيني وكان عضوًا في مجلس الاتحاد العام للنقابات العمالية، وشغل لفترة عضوية اللجنة التنفيذية للاتحاد حيث كان مشرف الاتحاد الثقافي.
- شارك عام (١٩٨٨) في ورشة عمل في الأمم المتحدة عن واقع العُمال الفلسطينيين تحت الاحتلال.
- شارك في محاضرة عن أوضاع العمال الفلسطينيين في الضفة والقطاع بدعوة من اتحاد العمال الكندي عام (١٩٨٨).
- شارك في العديد من الندوات الشعرية وتعرَّض لملاحقة السلطات الإسرائيلية عام (١٩٧٨) بعد قصيدة ألقاها في احتفال جماهيري بمناسبة الأول من آيار في قاعة سينما الحمراء في القدس كان عنوانها: «لن تسقط راية ثورتنا».

- أمضى حوالي العامين في السجون الأمريكية بتهمة التآمر على دائرة الضرائب الأمريكية ومُنِعَ من السفر لمدة ثماني سنوات.
- من خلال ديوان العرب أسس لمسابقة أدبية سنوية كانت الأولى في الشعر عام ٢٠٠٣، والثانية في القصة القصيرة عام ٢٠٠٤، والثالثة في أدب الأطفال عام ٢٠٠٥، والرابعة في الشعر الحر عام ٢٠٠٧، والخامسة في مجال الرواية العربية للشباب عام ٢٠١٠.
- ساهم في تأسيس تجمع أدبي فكري للكُتَّاب الفلسطينيين لكنه استقال منه لاحقًا، لغياب النهج الديمقراطي في العمل.

- **الإصدارات الأدبية:**

- عاشق الأرض : ديوان شعر ، عام ١٩٨١.
- نداء من وراء القضبان : ديوان شعر ، عام ١٩٨٥.
- لعيون الكرت الأخضر : مجموعة قصصية.
  المؤسسة العربية للنشر، بيروت ٢٠٠٦.
- أسرانا خلف القضبان : دراسة توثيقية.
  دار الكلمة للنشر، القاهرة ٢٠٠٦.
- عناق الأصابع : رواية
  مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٠.
- يحكون في بلادنا : قصص قصيرة
  مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢.
- عاشق على أسوار القدس : رواية
  مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢.

- البريد الإلكتروني: adel1957salem@gmail.com

الطريق إلى القدس

منذ مولده لم يغادر المدينة المقدسة. وُلد فيها، وتخرج من مدارسها، ورفض أن يلتحق بجامعة خارج أرض الوطن، فظل صامدًا فيها.

اشتغل بالتجارة، وبعد سنوات طويلة أصبح يملك أحد المحلات في شارع الواد الممتد من باب العمود حتى باب السلسلة. ـان سعيدًا في حياته على الرغم من كل الممارسات الإسرائيلية بتضييق الخناق على سكان القدس، فقد قرر أن لا يمنحهم نشوة الانتصار عليه.

- لن أتركها لمحتلّيها. سأموت وأدفن في مقابرها.

هذه كلماته الشهيرة، فالقدس بالنسبة إليه لم تكن مكان ولادة، بل كانت انتماءً حقيقيًّا للمكان، والتراث، والتاريخ. كان كثير التجوال في شوارعها وصعود جبالها حتى أصبح يعرف كل زقاق وحيٍّ فيها. إن تسأله عن أحد محلاتها يحدد لك بالضبط مكانه في الشارع، وصاحبه الحالي، والسابق. أصبح معلمًا من معالم القدس، ومرجعًا تاريخيًّا، وروحيًّا. القدس موطنه الدنيوي، وجنته التي ينتظرها يوم القيامة.

ما سر هذا العشق لهذه المدينة المقدسة؟ هل سورُها العظيم الذي بناه السلطان سليمان القانوني؟ هل هو المسجد الأقصى الذي يتوسط مدينة القدس وبرز كعَلم لها من السماء؟ أم كنسية القيامة القريبة منه؟ أم جبل المكبر الذي دخل منه عمر بن الخطاب إلى مدينة القدس يقود جملاً؟ هل هي شوارعها القديمة

التي غنت لها فيروز؟ أم جبل الطور الذي منه ترى كل القدس كقطعة فنية رائعة امتزجت فيها كل الألوان بريشة مبدعها؟ الحقيقة لا يعرفها أحد ولا حتى هو. كل ما يعرفه أن القدس بالنسبة إليه روحه، وإلهامه، وسر وجوده. إنها مصدر طاقته، وإصراره على الحياة.

في أواسط الثمانينيات استطاع أن يشتري قطعة أرض في منطقة كفر عقب التابعة لبلدية القدس حسب التقسيم الإسرائيلي وبعد جهد طويل حصل على رخصة بناء، وبنى عليها بيتًا جميلاً يعده قلعته الأبدية، وشبّهه بقلعة صلاح الدين. شعر بالراحة بعد بناء البيت. قال لزوجته:

- لن يخرجونا منها. لقد بنيت بيتًا، وجعلت له أساسات قوية، وهذه الغرفة أسفل العمارة، عبارة عن ملجأ نختبئ فيه إذا اندلعت الحرب من جديد. لن نهاجر إلى أي مكان، فإمّا أن نموت هنا، أو نعيش مع أولادنا وأحفادنا.

بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى في العام (١٩٨٧) بدأت إسرائيل تقيم الحواجز على الطرقات لفصل المدن عن بعضها وفصل المدن عن القرى، ومع استمرار الانتفاضة وتصاعدها تحوّلت بعض تلك الحواجز إلى نقاط عسكرية دائمة، ووضعت الحواجز الترابية، والأسلاك الشائكة حتى بين حي وآخر، وأصبح المرور من منطقة إلى أخرى يحتاج إلى

تصريح، ويأخذ وقتًا طويلاً قد يمتد إلى يوم كامل ما عطل أعمال الناس، وحال بينهم وبين إنجاز أعمالهم. ولأن القدس مركز فلسطين الثقافي، والديني، والسياسي، والصحي، فقد تضرر كثير من الموطنين بمن فيهم سكان القدس، وصاحبنا سعيد أحدهم.

اشتدت المضايقات بعد انتفاضة الأقصى في العام (٢٠٠٠)، وتصاعدت الأزمة حتى أصبح تجاوز نقطة التفتيش في قلندية التي تفصل كفر عقب عن وسط القدس يحتاج إلى ساعات، لذلك صار سعيد يحرص على الخروج من بيته مبكرًا ليصل إلى محله في الوقت المناسب. أحيانًا بعد صلاة الفجر، وبعض الأحيان قبل صلاة الفجر بقليل. لكن حتى تلك لم تضمن له الدخول؛ فالجنود العاملون في تلك النقطة كانوا كثيرًا ما يغلقون الطريق كليًّا في وجه الداخلين باتجاه القدس دون إبداء الأسباب، ويمنعون أي شخص من الاقتراب منهم ولا حتى سؤالهم لماذا؟ ولا متى سيفتحون الطريق؟

كان سعيد في تلك الحالة يجلس في سيارته يستمع إلى نشرة الأخبار، وأحيانًا إلى إحدى الأغنيات الطربية، ولأنه سئم من سماع الأغاني نفسها، اشترى مجموعة من أسطوانات الأغاني لعشرات المطربين الجدد والقدامى، وكان ينتقل من أسطوانة إلى أخرى حتى يقرر أحد الجنود ويفتح الطريق.

وقد طورت إسرائيل نقطة الحدود هذه، ووضعت لها إشارة ضوئية، فإذا كانت الإشارة حمراء يعني أن على السيارات الوقوف بعيدًا حتى يتغير لونها إلى الأخضر حسب مزاج الجندي المسؤول. وعندما يتجاوز سعيد تلك النقطة، فأمامه نقطة تفتيش أخرى أقل تدقيقًا، ولكنها أكثر ازدحامًا، لأنها تجمع إضافة على القادمين من قلندية، وسمير أميس، وكفر عقب، ورام الله، القاطنين في الرام، وضاحية البريد.

الانتظار صعب، ومن لم يجرب فليسأل سعيد الذي يقف بسيارته في طابور طويل ينتظر دوره للدخول. الطقس حار، والسيارة لا يوجد فيها مكيف تبريد. من أين؟ هل نحن في أمريكا؟ يقول سعيد. يكتفي بفتح شبابيك السيارة، ومسح العرق عن جبينه كل خمسة دقائق. يحمل في السيارة علبة كبيرة من الماء المثلج الذي يتحول بعد ساعة إلى ماء ساخن من شدة حرارة الجو.

سعيد هذه المرة مع جاره الذي قرر أن يقبل دعوته ويستقل السيارة معه إلى القدس.

قال له جاره:

- متى ستزول هذه الحواجز؟

- تزول؟ يا جار، ألا ترى السور الذي يبنونه؟ إنهم يفصِلون القدس إلى نصفين. انظر سكان الرام سيصبح عليهم التوجه إلى قلندية قبل التوجه إلى القدس.

- إنهم يضايقوننا كل يوم. متى سيحل السلام؟

- سلام؟ أي سلام؟ اليهود لا يريدون السلام.
- قصدك يريدون الأرض والسلام؟
- تمام يا جاري، يعني يريدوننا الرحيل ليصنعوا معنا السلام في المنفى.
- والسلطة؟
- السلطة؟ أية سلطة؟ كلهم مشغولون باللطش والسرقة ومصالحهم الخاصة. يعني إن غابت عنك مثلهم مثل الحكومات العربية.
- ألا يكفي اليهود يحاصروننا وجماعتنا يتقاتلون هذا حماس وهذا فتح؟!
- يا شيخ، خليها على الله. ما رأيك أن نسمع أغنية أحسن لنا.

لم تتحسن الأحوال، بل زادت سوءًا. كثيرون انتقلوا للسكن خلف نقطة التفتيش، وآخرون لم يجدوا مكانًا يسكنوه في القدس، حتى بيوت البلدة القديمة التالفة أصبحت تغص بالسكان، فاضطر بعضهم للبحث عن عمل في رام الله كي يهربوا من نقاط التفتيش العسكرية اليومية التي تضيّع معظم وقتهم سدى. سعيد ظل صابرًا كأنه من دم بارد. كان دائمًا يقول: ليس أمامنا خيار آخر. يريدون تطفيشنا، ولكننا على صدورهم جالسون.

رزق سعيد بمولود جديد كان السادس بعد أولاده الخمسة (ثلاثة أولاد وبنتان)، فتوجه إلى مكتب الداخلية الإسرائيلية في القدس لتسجيله حتى يصدر له شهادة ميلاد. على الرغم من وجود السلطة الفلسطينية، فسكان القدس مجبورون للتوجه إلى داخلية إسرائيل لتسجيل أبنائهم. بعد انتظار طويل من الصباح الباكر حتى الثانية بعد الظهر، وصل شباك تسجيل المولود الجديد. قدم أوراق مستشفى المقاصد في القدس، وبطاقته الشخصية. المولود الجديد اسمه صابر؛ صابر الاسم الوحيد الذي اختاره سعيد ليصف نفسه في مواجهة التطبيقات الإسرائيلية على أهله وبلده.

نظرت الموظفة اليهودية في بطاقته، ثم في جهاز الكمبيوتر الذي أمامها، وبعد ثوان قالت له:

ـ بطاقتك يا سعيد مسحوبة. انتظر قليلاً.

حملت البطاقة وغادرت مقعدها.

كان سعيد مبهوتًا بما قالته. مسحوبة؟ كيف؟ أنا أسكن في القدس ولم أغادرها.

عادت بعد لحظات بدون البطاقة. قالت له:

ـ المدير يقول إن بطاقتك ملغية لأن مكان سكنك أصبح تابعًا لمنطقة (ج)، أي خارج حدود بلدية القدس.

ـ ماذا تقولين؟ عندي رخصة بناء صادرة من بلدية القدس.

- هذا المخطط أقر منذ سنة تقريبًا.
- وبطاقتي، وعملي؟
- لا أعرف. هذا ما قاله المدير.
- أريد بطاقتي، لا تسجلي الولد.
- بطاقتك مسحوبة، ولن تعاد إليك.
- ماذا تقولين؟ أين المدير؟ أريد الحديث معه.
- اخفض صوتك حتى لا أستدعي لك رجال الأمن.
- ولكنك صادرت بطاقة الهوية، وتعرفين أن الجيش يدقق في هويات المواطنين العرب كل لحظة.
- دعني أرى ما يقول المدير.
غابت، ثم عادت بعد لحظات مع رجل كبير في السن يلبس نظارات سميكة، وعلى رأسه طاقية يهودية سوداء.
ابتسم له ابتسامة صفراء، وسأله:
- ماذا تريد؟
نظر إليه سعيد بغضب، ثم قال:
- أريد البطاقة التي صادرتها.
- هذه البطاقة مسحوبة لأنك لا تقيم في القدس.
- وبأي قانون تسحبها؟
- قانون القدس.
- قانون القدس؟ وأين سأعيش؟
- ليست مشكلتي. اذهب إلى السلطة.

- ولكنني من سكان القدس ومواليدها ولن أتركها.
- أنت حر.
أدار المدير ظهره، وعاد إلى مكتبه.

ماذا يفعل سعيد الآن؟ هل يلحقه ويحطم الباب؟
سيلقون به في السجن. هل يصرخ؟ هل يشتم؟
لن يعيدوا له بطاقته. هل يستسلم؟ لا، ولكن ماذا سيفعل الآن؟
ترك المكتب وهو حائر يسير في الشوارع بدون بطاقته. ماذا سيفعل؟ ماذا سيقول للجيش عندما يسألونه على الحاجز أين بطاقتك؟ هل سيسمحون له بالعبور أم سيعيدونه من حيث جاء؟

توجه إلى مكتب المحامي جواد على الفور، وشرح له قصته، فقال له المحامي:
- علينا رفع قضية لإعادة بطاقتك، ولكن نجاحها غير مضمون.
- غير مضمون؟ كيف؟ لماذا؟ أنا لم أخرج من القدس، ولم أسكن خارج حدودها. عندما بنيت البيت كان ضمن حدود القدس. هم الذين غيروا خريطة المدينة لتضم أكبر نسبة من السكان اليهود، وأقل عدد من السكان العرب. هذا ليس ذنبي. أنا لا أطالب أن يغيروا خريطتهم. هم أحرار في أن يغيروا ما شاءوا ما داموا يحتلونها، ولكن ليس من حقهم أن يطردوني منها بجرة قلم.

عاد مساءً إلى البيت. لاحظت زوجته تعبيرات الغضب المرسومة على وجهه. سألته:

- خير إن شاء الله؟ !أراك غاضبًا؟ كأنك تشاجرت مع أحد؟

- ليت الأمر كذلك؟

- ماذا إذًا؟ أخبرني ماذا حصل؟

- ذهبت إلى الداخلية لتسجيل صابر لإصدار شهادة ميلاد له فصادروا بطاقة هويتي، وقالوا لي أنت لم تعد من سكان القدس.

وضعت يدها على خدها، وقالت له، وقد عقدتْ حاجبيها:

- يا لطيف! وماذا فعلت؟

- ماذا أستطيع أن أفعل والحراس الجنود يملأون المكتب؟! خرجت من عندهم بدون بطاقة. أحمد الله أنه لم توقفني أية دورية وتسألني عن البطاقة.

- وماذا ستفعل؟

- لقد ذهبت إلى مكتب المحامي ووكلته لمتابعة الأمر، فنصحني كي نستطيع كسب القضية أن أنتقل إلى مكان آخر، لأن بيتنا الآن أصبح خارج حدود القدس.

قالت له:

- كنت أشعر أن شيئًا يدبر لنا. ألا تذكر أنهم لم يرسلوا لنا فواتير ضريبة البيت هذا العام؟ قلت لي حينها ربما نسونا، وقد قلت لك...

- عرفت.. قلت (إن اليهود مكارون، ولا بد وراء ذلك أمر خطير.) وبالفعل هذا ما حصل.

- إذًا سيسحبون بطاقتي أيضًا؟

- لقد أخبروني أن كل سكان المنطقة سقطت بطاقاتهم من مكتب الداخلية وأنها غير صالحة لشيء.

- الكلاب؟!

- لعنهم الله. ألا تكفي الحواجز، والمضايقات، والسور الذي يبنونه، والآن يطاردوننا حتى على بطاقة الهوية.

أين سنعيش؟

- يريدون تهجيرنا.

- لن يحصل ذلك حتى لو تحولت إلى متسول.

- وماذا ستفعل الآن؟ كيف ستذهب إلى المحل؟

نظر إليها وقد شعر أن هموم الدنيا تنزل على رأسه.

- سأحاول أن أجد بيتًا في البلدة القديمة يريحني من الحواجز، وسأقلل من تنقلاتي حتى نرى ما سيفعله المحامي.

- وبيتنا هذا؟

- ليس أمامنا خيار. سنغلقه حتى تتغير الأحوال وتحل القضية.

- صدقني أرى الحل بعيدًا جدًّا.

- عندما يكبر الأولاد يسكنون فيه.

في اليوم التالي، ترك سعيد سيارته باب بيته، وتحرك نحو القدس حيث استقل إحدى سيارات الأجرة حتى الحاجز الرئيس في قلندية (مسافة ليست بعيدة)، وهناك بعيدًا عن أعين الجيش استدار إلى جهة المخيم، وبدأ يسير مشيًا على الأقدام، ليلتف حول المخيم، ويدخل الشارع الجديد الذي افتتح خلف منطقه الرام، ومن هناك ظل ماشيًا كل منطقة الرام حتى اقترب من المفرق الرئيس. عليه الآن تجاوز نقطة التفتيش قرب مفرق الضاحية، فاتجه شمالاً عبر شارع ضيق متعرج إلى ضاحية البريد، وهناك قبل مفرق الضاحية مع الشارع الرئيس اتجه إلى اليسار عبر شارع فرعي إلى أعلى الجبل خلف العمارات بعيدًا عن نقطة التفتيش القريبة، وبعد أن وصل إلى سور إحدى العمارات هناك قفز عنه، وقطع الطريق إلى شارع صغير منحدر من العمارات القريبة من مستوطنة (نيفي يعقوب)، وسار باتجاه الشارع الرئيس. فجأة كان أحد السكان يغادر بيته في المنطقة، فطلب منه سعيد أن يوصله إلى شعفاط كي لا يراه الجنود ماشيًا فينادونه للتفتيش. سأله السائق:

- هل أنت من أهل الضفة؟

- لا من القدس، وصاحب محل في شارع الواد.

- اصعد.

نزل سعيد هناك، واستقل حافلة باتجاه باب العامود. كان تعبًا جدًّا. تساءل: هل هكذا ستكون رحلته كل يوم إلى القدس؟ وبينما

كان غارقًا في تفكيره توقفت الحافلة فجأة. نظر ليرى إن كان أحد الركاب سينزل فلم ير راكبًا مستعدًا للنزول. كانت دورية لحرس الحدود الإسرائيلي المتنقلة قد أوقفت الحافلة للتفتيش؛ صعد أحد الجنود وبدأ يدقق بالهويات، وعندما وصله الدور، قال له سعيد:

- نسيت البطاقة، ولكن هذه رخصة السواقة الإسرائيلية انظر؟

نظر إليه الجندي. تفحص رخصة السواقة. سأله:

- لماذا نسيتها؟

- تعطلت سيارتي ونسيت البطاقة بالسيارة أمام البيت.

اشتبه به الجندي، لكن سعيد بادره على الفور:

- لو لم أكن من سكان القدس لما كان معي رخصة سواقة من القدس. بإمكانك أن تتصل. انظر هذا مفتاح محلي في القدس.

هز الجندي رأسه، وقال له:

- لا تنس الهوية في المرة القادمة.

حمد الله على أن الأمر مر بسلام هذه المرة، ولكن من يضمن كيف ستكون المرة القادمة؟

سعيد وعائلته الآن يسكنون في منطقة رأس العامود التي تبعد حوالي كيلومتر عن سور البلدة القديمة.

من شرفة بيته يستطيع أن يرى سور القدس الذي يقف شامخًا رغم الرياح.

للقدس سبعة أبواب مفتوحة يعرفها كلها، لكن أقربها إليه باب الأسباط المحاذي للمقبرتين الممتدتين حول السور، إحداهما يسار الباب والثانية إلى يمينه.
بيته الجديد عبارة عن شقة في عمارة من الطراز القديم، فيما ظل بيته الجديد مغلقًا لا يسكنه أحد.

سارت الأمور على ما يرام، لكن منذ الانتفاضة الثانية تكثفت دوريات الجيش في الطرقات باحثة عن (المتسللين) من مدن الضفة الغربية إلى القدس. الطريقة الوحيدة للتخلص من الاعتقال أن تبرز لهم بطاقة القدس. حتى تلك البطاقة كانت أحيانًا لا تحمي حاملها من البهدلة والشتائم خصوصًا الشباب الذين يرى فيهم الجيش وقود الانتفاضة وحاملي شعلتها المضيئة.
سنة كاملة وهو على تلك الحال لا يعرف لها نهاية. جلسات المحكمة لا تبشر بالخير، ومشاكله مع دوريات حرس الحدود لم تتوقف حتى حفظه بعضهم، وأصبحوا يتركونه بحاله، فكلما اعتقلوه، يتم إطلاق سراحه بعد ساعتين.
في الجلسة الأخيرة للمحكمة كانت يده على قلبه، وحينما نطق القاضي حكمه بإعادة البطاقة له، لم يصدق، لكن المحامي أكد له أن كل الأوراق لصالحة، فهو ولد بها وعاش بها ويعمل بالقدس، وحصل على رخصة بناء بالقدس، ولم ينتقل منها، ولكن البلدية غيرت مخططها.

أخيرًا انتقل للسكن بعدما علم ذلك، ويدفع الضرائب ومستحقات مؤسسة التأمين الوطني... يا سلام مواطن صالح، ورغم ذلك لم يتركوه بحاله.
الآن هو من المرضي عنهم، من سكان القدس، مولدك في القدس أبًا عن جدٍّ لا يعطيك حق الإقامة فيها، بل قرار القاضي المحتل القادم من روسيا، أو رومانيا، أو وبولندا، وحتى من إثيوبيا، فهو الذي يمنحك هذا الحق، وله وحده حق طردك منها حتى لو شهد في صفك كل حجارة القدس، وسورها وأبوابها.

لكن؛ ماذا يفعل ببيته الكائن في كفر عقب؟ هل يبيعه؟ هل يؤجره؟ كيف؟ والمستأجرون لا يلتزمون بالعقد، ولا يخرجون من البيت إلا بالقوة. لا.. لا.. لا يريد أن يؤجره؛ سيترك البيت لحين استتباب السلام.. السلام قريب. لا يعرف متى. كل ما يعرفه أنه في كل عام يستمع إلى الأقوال نفسها: النصر على مرمى حجر.. الدولة قريبة.. اصبروا... الخ، حتى ملّ كل تلك الشعارات. المتباكون على القدس كثيرون، ولكنهم يتاجرون باسم القدس ومقدساتها.

بعد فترة ليست قصيرة، ركب سيارته، واتجه إلى بيته في كفر عقب. البيت كما هو، والأعشاب تنمو حوله دون أن يقلمها أحد. دفع الباب الخارجي للسور، ثم أخرج المفتاح من جيبه وهمّ بفتح الباب، لكن المفتاح لم يدخل في الفتحة المحددة للقفل.

غريب! هل نسي المفتاح؟

نظر إلى مفتاحه مرة أخرى مدققًا به. إنه مفتاح البيت. لا يمكن أن ينساه، فقد مر على استخدامه أكثر من عشر سنوات. جرب مرة أخرى، ولكن دون نتيجة. نظر إلى قفل الباب. شعر كأنه قد تغير، ولكنه لم يغيره. هل غيرته زوجته دون إعلامه؟

اتصل بها من هاتفه الخلوي فردت عليه:

- أبدًا لم أصل البيت منذ انتقلنا إلى هنا.

- هل فعلها بعض اللصوص؟

أغلق الخط وبدأ ينظر من الشبابيك إلى داخل البيت، فشاهد في إحدى الغرف الداخلية بعض الأثاث.

أنا لم أترك شيئًا في البيت. من أين جاء الأثاث؟ لا بد أن أحد (الزعران) يسكن البيت مستغلاً غيابنا.

ثارت ثائرته. اتصل بأحد إخوته وطلب منه أن يحضر إليه لاقتحام البيت، فهب أخوه لنجدته. عاد سعيد إلى السيارة، وأحضر بعض المفكات والشاكوش وحاول بها كسر القفل. بعد ساعة، وقبل أن يصل أخوه، استطاع كسر الباب. دخل البيت، فشاهد بعض الأثاث الموجود في البيت. دخل غرفة نومه فلم يصدق. وقف مبهوتًا:

- يا إلهي.. فعلها الكلاب.

كان علم إسرائيل معلقًا على الحائط، فعرف أن المستوطنين استولوا على البيت.

فجأة سمع صوت سيارات تقف أمام البيت، فخرج فرأى يرى سيارة للجيش وأخرى للمستوطنين اليهود، يحملون أسلحتهم.

سألهم:

- ماذا تريدون؟

فقال له الجندي:

- أنت ماذا تفعل هنا؟

- هذا بيتي.

فقال له أحد المستوطنين الذي يبدو في الستين من عمره:

- هذا بيتنا، وليس بيتك. لماذا كسرت الباب لو كان بيتك؟

- لأنكم غيرتم قفل الباب واستوليتم عليه.

فقال له الجندي:

- هل معك أوراق أنه بيتك؟

- طبعًا.

- أين هي؟

- معي في البيت في رأس العامود.

فضحك المستوطن، وقال للجندي:

- لو كان بيته لكان يسكن فيه، لكن تعال إلى الداخل.

دخلوا جميعًا فقال المستوطن:

- كيف يكون بيته وهنا صورتي على الحائط وهذا علم دولة إسرائيل؟ إنه يريد سرقه البيت.

- اخرس يا كـ... هل تريد الاستيلاء على بيتي وأنا حي؟

- أنا لم أستول على البيت.. أنا اشتريته من الشركة التي اشترته منك.

- متى؟ أنا لم أبع البيت.

فقال له الجندي:

- اسمع، هذه أمور تحلونها في المحاكم. أنا هنا لأخرجك من البيت، وسآخذك إلى قسم الشرطة لأنك كسرت الباب وتسببت بأضرار.

- إنه بيتي، يا عالم.

- قل ذلك للقاضي.

قيّدوه وساقوه إلى الجيب. وصل أخوه في تلك الفترة، وفوجئ بما حصل. سأله:

- ماذا جرى؟

- المستوطنون استولوا على البيت ويدّعون أنهم اشتروه.

- الكلاب.

اقترب منه أحد الجنود وسأله:

- من أنت؟

ـ أنا محمد.

ـ أنت أخوه؟

ـ نعم.

-اذهب من هنا قبل أن أسجنك معه.

ـ لكنه بيت أخي.

ـ أخوك باعه.

ـ هذا كذب.

ـ حسنًا كذب. قلْ ذلك للقاضي. أنا لا أحكم بينكما.

قال محمد لسعيد:

ـ توكل على الله. سأعود بسيارتك، فقد جئت بسيارة أجرة. أعطني المفتاح، وسأوكل لك محاميًا.

غادر محمد البيت ليبدأ اتصاله، فيما اقتيد سعيد إلى قسم الشرطة في القدس. كان خلال الطريق متوتر الأعصاب، يكاد ينفجر. الكذب عينك.. عينك؛ يستولون على البيت وهو بيتي، ويدّعون أنهم يريدون السلام وأننا الإرهابيون. آخ لو أستطع أن...

لا أعرف ما العمل الآن؟

محام من جديد؟ مصاريف؟ جلسات؟ ملاحقات؟ حتى لو أعادوا البيت، فالسؤال إلى متى؟ متى سيتوقفون عن الاعتداء علينا، ونهبنا؟

في اليوم التالي، خرج سعيد من السجن بكفالة، وعلى الفور رفع قضية يطالب فيها باستعادة بيته، وقدّم كل الأوراق التي تثبت أن البيت بيته، حتى قال له المحامي إن نجاح القضية مضمون مائة بالمائة.

بعد عدة جلسات أكدّ القاضي أن أوراق سعيد كلها صحيحة، وأنه فعلاً كان صاحب البيت، ولكن أوراق المستوطن كلها صحيحة أيضًا، وأن سعيد قد باع الدار إلى إحدى الشركات التي باعتها للمستوطن.

صاح سعيد من الغيظ:

- لكني لم أبع البيت.

- لكن التوقيع حسب محلل الخطوط توقيعك، والشهود شهدوا على ذلك.

- يا حضرة الـ...

قاطعه القاضي:

- يمكنك الاستئناف. رفعت الجلسة.

كاد سعيد ينفجر من القرار. كان يريد الهجوم على القاضي وضربه. حبذا لو يستطيع فعل ذلك. لمن نشكو يا رب؟ القاضي يتحيز لهم، والشهود يهود، الشرطة يهود، من ينصفنا؟

توجه إلى المحامي وسأله:

- كيف يحدث هذا؟ يسرقون بيتي. هذا كل ما أملك. إنه مستقبل أولادي.

حاول المحامي أن يهدّئ من روعه، فقال له:

- التزييف محكم يا سعيد.

- لكن كيف عرفوا توقيعي؟

- بسيطة.. من الأوراق التي قدمتها لبلدية القدس حيث حصلت على رخصة للبناء.

- وكيف حصلوا على ذلك؟

- هل هذه مشكلة؟ شركات الاستيطان اليهودية لديها مؤيدون وعناصر في كل مكان في مؤسسة الدولة، وهناك متخصصون في تزييف التوقيع بحيث يصعب أن تميزه عن الأصلي، والمحامي الذي صادق على توقيعك (أهرون حسون) يعمل مع المتطرفين اليهود، وكان في السابق من جماعة عضو الكنيست المتطرف (رحبعام زئيفي) الذي يطالب بطرد العرب.

بصراحة توقعت كسب القضية، ولكني فوجئت بالقرار العنصري.

سنستأنف القرار.

- هل تتوقع أن يصادقوا على القرار؟

- لا أعرف، ولكن علينا ألا نستسلم. أليس هذا رأيك؟

- لم يعد رأيي مهمًّا. إنهم يضعوننا دائمًا في الجانب الضعيف، ويتركون لنا نفقًا واحدًا للخروج منه؛ هذا النفق يؤدي إلى الطريق التي يريدونها، وكلما خرجنا من نفق أدخلونا في نفق آخر.

- ألم يكن باستطاعتك تأجيره لأحد الأقرباء؟
- هل هذه هي المشكلة؟ ألم أكن أسكن فيه؟ أليس هذا بيتي؟
- سنتابع الاستئناف في المحاكم.
- لم أعد أثق بمحاكمهم.
- ولكننا نجحنا في مرات سابقة.
- وهل هذا يجعلها محاكم عادلة؟ كم حالة مشابهة مثلي رفضت المحاكم إعادة بطاقاتهم لهم؟ ماذا يفعل سكان ضاحية البريد الذين كانوا منذ العهد الأردني (قبل ١٩٦٧) ضمن القدس، ثم فجأة حولتهم بلدية القدس إلى منطقة غير خاضعة لها كي تتوقف عن تقديم الخدمات لهم، وتحرمهم من دخول القدس؟
- أنت صحيح، ولكن يا سعيد، ليس أمامنا من خيارات أخرى.
- هل تعرف نحن وهم مثل خصمين يتلاكمان في حلبة الملاكمة؛ أحدهما قوي ويمثل إسرائيل، والثاني ضعيف ويمثلنا. القوي لا يريد أن يضرب خصمه الضربة القاضية من الجولة الأولى كي لا يضج الجمهور الذي اشترى تذاكره ليشاهد مباراة كاملة، ولكنه يضرب خصمه ضربة يوقعه أرضًا، ويتركه يترنح على الأرض، ثم يستعيد أنفاسه، ويقف ليفاجئه بالضربة التالية، وهكذا.
- أذهلتني بهذا الوصف، وماذا ترى أن على الخصم الضعيف أن يفعل؟
صمت طويل.

- لا أدري.. لا أفهم كيف يمكن للضعيف أن ينتصر وهو يرى الأقوياء يصفقون للقوي والضعفاء يترقبون عبر شاشات التلفزيون صامتون، يدعون الله أن ينصره على خصمه؟!

- وهل يفكر خصمك الضعيف بالاستسلام؟

- أحيانًا أتساءل: لماذا لا يفكر الخصم الضعيف بالاستسلام من البداية، والرضوخ للأمر الواقع؟

- وماذا ترى؟

- لو استسلم سيبصق عليه كل الجمهور، والمشاهدون سيقولون إنه جبان.. تافه.. خائف. لن يقولوا إنه يواجه خصمًا أضخم، وأقوى منه.

- عجيب أنت يا سعيد. تصور الأمور بطريقة...

- غريبة، أليس كذلك؟

- وعجيبة أيضًا. لكنك لم تجب على سؤالي: ماذا على الخصم الضعيف أن يفعل؟

- أحيانًا أقول إن على الضعيف أن يظل يترنح على الأرض أو يتظاهر كذلك حتى الجولة الأخيرة، حيث يكون القوي قد وصل إلى قمة غروره، ثم...

- ثم ماذا؟

- ثم فجأة يهجم عليه بسرعة يكيل له ما استطاع من ضربات قبل أن يطلق الحكم صفارته بانتهاء المباراة.

- والنتيجة؟

- ربما يحقق بعض النقاط على خصمه، وربما...
- وربما ماذا؟
- وربما يذهل خصمه بالمفاجأة ويعجز عن سد الضربات.
- دعنا من الأحلام وقل لي: هل أستأنف القرار؟
- نعم سنستأنف القرار حتى النهاية.

صادقت محكمة الاستئناف على قرار محكمة الصلح، وحكمت لصالح المستوطن، وصادقت محكمة العدل لصالحة، ولم يبق أمام سعيد أية محاكم يلجأ إليها. هل يلجأ إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي؟ كيف؟ هل ستقبل استلام قضيته والنظر فيها؟ لقد أحكموا الخناق عليه؛ الشهود منهم، والتوقيع محكم التزييف. ماذا باستطاعته أن يفعل؟

اتصل بالسلطة الفلسطينية وشكا لهم ما جرى، فنصحوه أن يتابع الموضوع بالمحكمة، وقال له أحد المسؤولين:

- وهل تعتقد أن بيتك الوحيد الذي سيطروا عليه؟!
- وهل سنظل صامتين؟
- وماذا باستطاعتنا أن نفعل؟
- أوقفوا إسرائيل عند حدّها.

ضحك وقال:

- كيف؟
- تسألني أنا كيف؟ ولماذا أنتم سلطة؟

قاطعه وقال له:
ـ لدي أشغال. سأرفع قضيتك إلى لجنة المتابعة.

سافر سعيد إلى الأردن، وعرض على أحد المحامين أن يرفع القضية أمام إحدى المحاكم الأردنية باعتبار أن القدس كانت تابعة لها قبل العام (١٩٦٧)، وبالفعل تشجع المحامي ورفع القضية، ولكن جاءه الرد بعد فترة:
المحاكم الأردنية لا تنظر في قضايا خارج الحدود الأردنية، وقد فكت ارتباطها القانوني والإداري مع الضفة الغربية العام (١٩٨٨).
ـ اللعنة!

عاد إلى القدس ليطلب من محاميه رفع القضية إلى لاهاي، فقال له:
ـ محكمة لاهاي لا تنظر في خروقات فردية، ولكن في جرائم دولية أو جماعية.
ـ هل أنت متأكد؟
ـ هذا ما أعرفه، ولكن حتى لو كانوا سيقبلون قضيتك، فأنا غير متخصص في المحاكم الدولية، وهذا بحاجة إلى عدة محامين دوليين، وهذه مصاريف مكلفة قد تصل إلى عدة مئات من آلاف الدولارات. ألديك كل هذه المبالغ؟
ضحك وقال:

ـ طبعا لا.

صمت طويلاً...

ـ أعرف أن الصدمة كبيرة. أعتذر أنني لن أستطيع فعل شيء. لم يعد أمامنا سوى حل واحد؛ عندما تحل قضية فلسطين ستحل قضيتك.

ـ وهل تعتقد أنها ستحل قريبًا؟

ـ لا ليس قريبًا.

ـ كيف عرفت؟

ـ المفاوضات فرصة الأقوياء ليستسلم الضعفاء بشرف، والمقاومة طريقها طويل لا أحد يرى نهايته.

❖ ❖ ❖

أبو الدوح

الحديث عن (أبو الدوح) إن بدأ لا ينتهي بدقائق، لأنه من الصعب أن تتحدث عن محمد دوحان (أبو الدوح) دون أن تتحدث عن واقع الأسرى في سجن نفحة، ودون الحديث عن معارك نضالية طويلة، ودون الحديث عن بطل تذكّره يثير فيك حب العودة إلى أكثر من عشرين سنة للوراء.

قيل لي من أقرب المقربين لعائلته بأنه استشهد، رحل مع الراحلين، وما أكثر الشهداء! كلهم يحظون بتقدير واحترام، ولكن لبعضهم بالتأكيد مرتبة خاصة داخلية لأنهم كانوا جزءًا مني، ومن الصعب أن تمر أسماؤهم دون أن تفجر بركانًا داخليًّا يهزني من الأعماق.

- آه كم بركان تفجر داخلي خلال السنوات الثلاثين الماضية؟ وكم بركان آخر سيتفجر قبل أن أغادر مسرح الحياة؟

لم يمر على الإفراج عنه سوى سنتين، فقد أمضى في السجن أكثر من (١٥) سنة. تحرر من الأسر في صفقة تبادل الأسرى سنة (١٩٨٥). خرج للحرية ليستنشقها بعد سنوات الأسر الطويلة، قضاها متنقلاً بين سجون كثيرة في فلسطين التاريخية، فإذا به يخرج من السجن ليلقى حتفه، كأنه والموت كانا على موعد. لم ينل منه الموت في فلسطين، فلحقه إلى لبنان، كأن الموت لم يرد له أن يحقق أحلامه.

ظالم هذا الموت يخطف الناس من أحلامهم دون سابق إنذار. هذا الموت عدو شرس من الصعب قهره.

كان يقول قبل استشهاده: للهواء رائحة خاصة خارج القضبان. لكنه لم يخبرنا ما طعم الشهادة في المنفى!

عندما يأخذ الموت من نحبهم نصاب بنكسة. نتمنى لو نقدر أن ننتقم من الموت، ولكننا نقف عاجزين عن الدفاع عن موتانا. ربما نتغلب على الموت عندما نكتب أحلامنا، حتى إذا هزمنا الموت تبقى أحلامنا، لعل آخرين يقرؤونها، فنعود إلى الحياة من النافذة الضيقة.

أطلقوا سراحه واشترطوا نفيه خارج الوطن، ثم لحقوه ليقتلوه، فظل محفورًا في ذاكرتنا.

منذ عشرين سنة لم أره، ولكنه لم يغب عني على الرغم من كل تلك السنوات. أكاد أراه الآن أمامي بشحمه ودمه، وبسمته التي لم تغب عن شفتيه. أحاول أن أهجم عليه لأعانقه، فأصاب بكابوس يمنعني من الاقتراب منه.

ما زال ماثلاً أمامي ببسمته العريضة:

- مع السلامة يا رفيق. خليك على العهد. إياك أن تنسانا؟ معظم الذين غادروا هذا السجن عاهدونا ونسونا، فلا تكن مثل الأكثرية.

- لن أنساكم يا أبطال هذا الوطن، ولو أردت فلن أستطيع، فقد حفرت تلك الشهور القليلة معكم آثارها في الذاكرة، وما حفر في هذه الذاكرة يصعب نسيانه، مع أن أشياء كثيرة فيها أتمنى لو

أنساها ولا أعود أتذكرها. الذكريات جزء من الإنسان. جزء من تضاريس وجهه وتركيبته النفسية. جزء من طبيعته. من قوته ومن ضعفه.

في الأول من نيسان (١٩٨٥) ضممته لصدري؛ تعانقنا ونحن في ساحة السجن قبل أن يفرج عني.

كل الأسرى خرجوا للوداع. خرجوا ليحلم كل منهم بيوم يكون هو فيه من يقف مكاني. لم أستطع أن أتمالك نفسي وأنا الذي سيخرج من السجن، وهم باقون بعدي!

كانوا أكثر عزيمة مني وأكثر صلابة. أكثر تحديًا لإرادة السجان. ودعتهم جميعهم. عانقت الكثيرين منهم، خصوصًا من عاشوا معي في الغرفة نفسها، أو الذين كنا معهم نحرر مجلة السجن المنسوخة بخط اليد (نفحة الثورة والعطاء)، والتي كانت ممنوعة، وتتنقل بين الغرف خفية عن السجان.

ودّعت أبطالاً لا تزال صورهم تعيش في ذاكرتي حتى اليوم، وأعترف لكم بأنها لن تنمحي، لأنني خزنت في ذاكرتي أكثر من نسخة عنها، لو فقدت واحدة منها استخرجت النسخة الأخرى.

ودعتهم جميعًا ودموعي تسيل على خدودي. كانت لحظات قاسية ما زلت أذكرها، وأذكر صورها الحية في ذهني.

عندما ودعت (أبو الدوح) قبّلته، وشدني لصدره وشد على يدي حتى كادت تنكسر، وقال لي هامسًا: الوداع.. الوداع.

بكى كثيرًا كأنه كان يعرف أننا لن نلتقي مرة أخرى.

كان (أبو الدوح) طويلاً. عريض المنكبين. قوي البنية. يصلح أن يكون ملاكمًا مثل مايك تايسون، أو محمد علي. أهم ما فيه طيبة قلبه. لم يكن (أبو الدوح) زعيمًا، ولا مسؤولاً في تنظيم، ولا منظّرًا. كان ببساطته مثال الأسير المناضل من أجل وطن، ومن أجل قضية.

على الرغم من المدة القصيرة التي عاشرته فيها بالسجن (ثمانية أشهر)، فقد استطعنا أن نكون أصدقاء رائعين.

كنا أسرة واحدة في غرفة رقم واحد في سجن نفحة. كانت تضم ثمانية أسرى لا غير، فقد كان سجن يتكون من عشر غرف كل غرفة فيها ثمانية أسرى، يعني ثمانين أسيرًا، إضافة إلى غرفة غسيل الأواني، وغرفة مكتبة، وغرفة العيادة، وساحة صغيرة لم تكن تزيد عن ثلاثين مترًا مربعًا لا تصلح للركض أو حتى السير.

أهم ما يميز (أبو الدوح) كان بشاشته. كنا نمزح معًا طيلة الوقت.

كان يسألني دائمًا هو أو الشيخ فضي:

ـ كيف؟

فأرد عليه قائلاً:

ـ مثل اللحمة على الرغيف.

مساء أحد الأيام أواخر سنة (١٩٨٤)، نادى السجان على الأسرى الذين عليهم السفر صبيحة اليوم التالي للعلاج في سجن الرملة ليجهزوا أنفسهم صباحًا باكرًا، وكان محمد دوحان واحدًا منهم، فأقمنا له احتفال وداع في غرفتنا كأنه على وشك التحرر من الأسر.
أشار لنا (أبو الدوح) بيديه وهو خارج من القسم مع السجان.
تأثرنا لفراقه.

كان (أبو الدوح) من محبّي الحلويات، فاخترع لنا طريقة تصنيع من إعداده، وهي عبارة عن تفتيت الخبز خصوصًا قشرته اليابسة بشكل صغير، ثم خلطه بعد ذلك بالسكر والزبدة والمكسرات ولا أتذكر غير ذلك، وكانت بالنسبة إلينا شهية، فماذا سنقول وليس لنا بديل آخر؟! لكن ألذ ما بها أننا كنا جميعًا في الغرفة نشارك في صنعها بدون استثناء.
نجلس على الأرض أو طرف السرير نفتفت الخبز قطعًا صغيرة، ونتبادل الحديث والنكت والأحلام.
لمَ لا يحلم الأسرى؟ أليس هم أحق الناس بالحلم؟
يكررون الأحلام كل يوم. كلهم في الغرفة كانوا عزابًا ما عداي. يحلم كل منهم بعروس أحلامه. يرسمها بخياله كما يحلو له. يضع على عينيها الألوان التي تعجبه. يقص شعرها متى أراد، أو يتركه ليصبح طويلاً. يضع على شفتيها أحمر الشفاه،

وينزعه متى شاء. يلبسها أجمل ما لديه. يجعل خصرها نحيفًا. يلبسها فستانًا أو بنطلونًا أو... يقبّلها متى شاء، ويعانقها متى أراد. أليسوا بشرًا مثل كل البشر؟ لا لم تمت أحاسيسهم وأحلامهم الوردية، ولكنها ظلت مكبوتة لا يفصحون عنها لأحد.

كان أسرانا ما زالوا يحلمون بالحرية. يحلمون بالسير في شوارع القدس وغزة. يحلمون بشاطئ فلسطين وأمواج البحر ونسيمه العليل.
لم يحلموا بعمارات وسيارات. كانت أحلامهم بسيطة كبساطتهم.

كان (أبو الدوح) أكثرنا حلمًا. قال لنا: لدي أحلام كثيرة أتمنى أن أتمكن من تحقيقها. وأكمل قائلاً: لا بد أن أحققها.
لم نقل له أن تحقيق الأحلام لا علاقة له بقدرتنا أو تصميمنا، ولكنه رهن بما يخبئه القدر لنا.إلاّ أننا تعودنا في الأسر أن لا نحبط أحدًا، وأن لا نمنعه من أن يحلم كما يريد، فماذا بقي لنا غير الصمود والحلم في زمن عربي تعيس يتنكر الكثيرون فيه لمن يقدمون أرواحهم فداء أوطانهم.

كانت حلويات (أبو الدوح) يتم تحضيرها كل أسبوع، وأظنه كان يوم سبت، إن لم تخني الذاكرة، لذلك كان يطلب منا في ذلك اليوم أن يحافظ كل منا على قطعة الخبز التي نحصل عليها لوجبة العشاء، وأن لا نأكلها لنعد الحلويات منها.

شاركت مع الجميع في إعداد الحلويات، ولكني في المرة الثالثة انسحبت؛ فقد كان تفتيت الخبز قطعًا صغيرة جدًّا مسألة مملّة، ورغم بساطتها فإنها متعبة، فلم يكن عندنا لا قطاعة ولا خلاطة، وكان علينا أن نقوم بذلك كله بأصابعنا، فما إن ننتهي حتى نتنفس الصعداء.

سافر (أبو الدوح)، وسافرت معه قلوبنا. مرَّ يوم.. يومان.. أسبوع، ولم يعد، فما أن وصلت البوسطة بعد أسبوع حتى قال لنا أسير قادم من سجن الرملة- حيث المستشفى الخاص بالسجون-: (أبو الدوح) سوف يتأخر أسبوعًا آخر لأنه أقدم على قتل سجين فلسطيني جاسوس.

- كيف حصل ذلك؟

كان محمد دوحان نزيل غرفة في سجن الرملة اسمها بالعبرية (المعفار)؛ هذه الغرفة مخصصة فقط للذين ينقلون من السجون إلى المستشفى، أو من سجن إلى سجن، وتضم الغرفة عادةً أسرى من كل السجون، وعادةً ما يمكثون هناك عدة ساعات، أو عدة أيام فقط.

قيل له من نزلاء الغرفة:

- نعم.. هناك جاسوس في الغرفة. جاءت به الإدارة إلى هنا لنقله إلى المستشفى لعلاجه. لقد تسبب بموت بعض المواطنين، كما عمل على إسقاط بعض الفتيات للتعامل مع المخابرات بعد

أن قام بتخديرهن وممارسة الجنس معهن وتصويرهن بأوضاع مشينة استخدمتها المخابرات في الضغط على الفتيات أو فضحهن...

- يا لطيف لقد اقشعرّ بدني. قال (أبو الدوح).

- هذا مجرم يجب إعدامه، ولكن يجب أن يؤخذ قرار من الجهات المسؤولة على ذلك.

- لكن لماذا اعتقلوه؟

- يبدو أنه لم يلتزم بكل ما قالوه، أو ربما أرادوا التخلص منه بعد أن انكشف أمره، فاعتقلوه بتهمة من التهم لكي يتجسس على الأسرى في السجن. لا بد من التحقيق معه.

- يجب أن يعدم هذا السافل.

- لا يا صديقي.. لا يمكن أن نعدم أحدًا لم يتّخذ قرار بإعدامه من قبل قادة الأسرى حتى لا تحدث إرباكات.

- أية إرباكات؟

- نحن في سجن (معفار)، ولدينا أسرى محكومون أحكامًا بسيطة، فقد يجري محاكمتهم لأنهم لم يبلغوا عن الجريمة.

- أنا أؤيد هذا الرأي. قال آخر.

- حسنًا لنحقّق معه.

طلب منهم أن يبتعدوا عنه، وأن يجلسوا في الأسرة الأمامية، وأن يبدؤوا بالغناء والنشيد ليغطي صوتهم على صوت التحقيق.

بعد لحظات، كان الجميع في مقدمة الغرفة يجلسون على شكل دائرة، ويغنون معًا بصوت عالٍ:

جانا وجانا يابا جانا
الجيش على الدار جانا
ولا تخافي يا يما
ولا تكوني زعلانة
وتذكري يوم أجا الجيش
بنص الليل أخذوني
لا خلوني أودعكم
ساعة الاعتقال حانا

.....

.....

ذهب إلى الجاسوس ونادى عليه: أريد أن أكلمك في أمر مهم. جلس معه في زاوية الغرفة البعيدة عن الباب، وهناك بدأ التحقيق معه. كان منظر (أبو الدوح) إذا عبس مخيفًا مرعبًا خصوصًا عندما يكون الناظر جاسوسًا يخاف من خياله. اعترف بكل التهم، وكتب تقارير كاملة حول تجسسه على الوطنيين ومتابعته لهم، واعترف أنه قام بكل ذلك لأن المخابرات أغرته بالفلوس والنساء، وبعد أن ورطته أول مرة حاول أن يتراجع، ولكنهم هددوه بكشف أمره، فخاف وبقي متورطًا.

هاله حجم الخدمات التي قدمها الجاسوس لأسياده الصهاينة، وخصوصًا عندما شرح كيف كان يُسقط الفتيات، فثارت ثائرته، وقرر لوحده إعدام الجاسوس، وتحمّل نتائج الموقف.

بعد أن قرأ عليه لائحة اتهامه، قال له: قررت الثورة الحكم عليك بالإعدام.

- أرجوك الرحمة. أنا نادم على ما فعلت. قال الجاسوس لدوحان.

وضع (أبو الدوح) يده على رقبة الجاسوس وبدأ بالضغط عليها، وكان كلما تذكر كيف كان الجاسوس يخدّر الفتيات ويغتصبهن، يشد أكثر على رقبته دون أن يتحرك له رمش عين. أراد أن ينتقم لشرفهن مرة واحدة. كان الجاسوس يقاوم بحرارة الروح، ولكن غضب (أبو الدوح) ويديه القويتين لم تتركا له مجالاً للحياة، فمات دون أدنى رحمة.

بعد ذلك أمر (أبو الدوح) الجميع العودة لأسرّتهم، ونادى السجان من باب الغرفة.

- صوهير (يا سجان بالعبرية).

- ما أتا روتسيه (ماذا تريد؟).

- بو تكح كلف شلخيم (تعالوا خذوا كلبكم).

- كلف شلانو؟ (كلبنا؟ هل عندكم كلاب في الغرفة؟)

بدأ السجان يتفحص الغرفة من الخارج.

- تعالوا خذوا كلبكم؟

- ماذا تقصد؟

دخل (أبو الدوح) إلى آخر الغرفة. حمل جثة الجاسوس بين يديه، وعندما اقترب من الباب رماها بقوة على الباب، فأحدث ذلك ضجة كبيرة، وسرعان ما ضرب السجان يده على جهاز الإنذار الذي يحمله، فحضر بلمح البصر عدة سجانين بالعصي والهراوات.

فتحوا الغرفة ودخلوا: ما هذا؟

- كلبكم.

- من قتله؟

- الثورة.

- ماذا؟

- أنا نفذت القرار وقتلته. لماذا؟ لأنه جاسوس لكم.

ألقوا القبض عليه، وربطوه بالقيود، ونقلوه إلى زنزانة انفرادية. ظل هناك لعدة أيام، ثم أعادوه إلى (المعفار) بعد أن حققوا معه. قال لهم: أنا نفذت قرار الثورة، وعاقبته جزاء خيانته. لم يهتم بما سيحكمون عليه، فقد كان محكومًا بالمؤبد؟

- حتى لو عاقبوني، فقد أرضيت ضميري.

هؤلاء الجواسيس لا يجب التساهل معهم. على الثورة أن لا ترحم أحدًا منهم. معاقبتهم هي التي ستحد من تناميهم، ومن قدرة المخابرات الصهيونية على تجنيد المزيد منهم.

تحرر (أبو الدوح) من الأسر، وكان ضمن المنقولين إلى لبنـان. ودّعه رفاقه على اللقاء بعد التحرر. لم تدم فرحتنا طويلاً، فبعد قصف دامٍ صهيوني لأحد المواقع، جاء نبأ استشهاده. بكى جميع من عرفه، وأبّنوه، واحتفظنا بصوره في ذاكرة كل منا نستعيدها متى أردنا.

العام (٢٠٠٦) كان عام الخوارق والعجائب. وصلتني رسالة إلكترونية غير عادية لم أصدقها. ترددت كثيرًا جدًّا قبل الرد عليها. كانت من طالبة مدرسة من غزة تقول إنها ابنه محمد دوحان، وأن أباها ما زال حيًّا.

ما زال حيًّا؟ كيف؟ ألم يبلغني رفاقه أنه استشهد؟ ألم أقرأ بيانات النعي له على صفحات الجرائد آنذاك؟!

قد تقصد أنه حي في قلوبنا. أرسلت لها مستوضحًا، فجاءني الرد أنه حي يرزق. إذًا الشهداء يعودون؛ يعودون بلباس جديد وروح جديدة.

طلبت رقم هاتفه لأتحدث معه. أأتحدث مع الأموات؟ كلا.. إنني سأتحدث مع الشهداء.

وما الفرق؟ أليسوا أمواتًا؟ كيف نتحدث إليهم؟ لعلها خدعة. دعني أجرّب.

اتصلت به، فجاء صوت من بعيد:

ـ السلام عليكم.

- وعليكم السلام.
- هل أنت محمد دوحان؟
- أتشك في ذلك؟
- هل أنت الذي كنت معنا في سجن نفحة؟
- أنا هو في الغرفة نفسها مع الشباب.
- هل تذكر أحدًا منهم؟
- ألا تصدق؟ لا ألومك يا عادل، فقد اعتقد الأهل في البداية أنني استشهدت، ولكن كانت الشهادة نصيب شخص آخر معي، ونجوت أنا من موت محقق. لقد أخبرنا عبد العزيز أبو القرايا عما كتبته عني، ودعاني إلى مكتبه لأقرأه، فأخبرت ابنتي أن تكتب لك.
- لكني قرأت في...
- أعرف. لقد كتبوا عني بأنني الشهيد، حتى أهلي فتحوا لي بيت عزاء. كانت الاتصالات بين لبنان وفلسطين مقطوعة، ولم يكن في تلك الأيام لا شبكة عنكبوتية ولا هواتف محمولة، أنسيت؟ فلم يعرفوا أنني حي إلا بعد وقت طويل جدًّا.
- لا أصدق، وكيف عدت إلى غزة؟
- عشت بعد ذلك في سوريا، حتى خروج القوات الصهيونية منها، فعدت مع عائلتي، وها أنا الآن فيها صامد.
- أنا الآن لا أعرف كيف أصف لك مشاعري؛ هل أصدق؟ أم أكذب؟ ليتك أمامي يا محمد. من كان يصدّق أن الشهداء يعودون؟ أنا سعيد بسماع صوتك...

لم أعرف ماذا أقول له. كيف أخاطب الشهداء، وبأية صفة أحدثهم؟ هل زالت عنه قداسة الشهداء؟ كيف؟ وقد ظل عشرين عامًا في ذاكرتي شهيدا للوطن؟ سأحتاج إلى عشرين مثلها لأغيّر مرتبته داخل تلك الذاكرة. ترى من أين تأتي قدسية الشهداء؟ ألأنهم ماتوا، وفارقونا؟ أم لأنهم قدّموا للوطن أجمل ما يملكون؟

ألم يقدم سنوات شبابه الطويلة من أجل الوطن؟ ألا يستحق أن يكون من شهدائه الأحياء؟

(حزيران ٢٠٠٥)

❖ ❖ ❖

الأمن الوقائي

كان يقود سيارته متجهًا إلى العيزرية لزيارة أحد أقاربه هناك عندما اعترضت طريقه سيارة مدنية ذات لوحة صفراء اعتقد للوهلة الأولى أنها سيارة للمخابرات الإسرائيلية، ولكنه فوجئ بعد أن أوقف سيارته بأربعة شبان عرب يتجهون نحوه؛ اثنان نزلا من السيارة التي اعترضته، وآخران نزلا من السيارة التي كانت تسير خلفه. حدثته نفسه بالهرب، ولكنه خشي أن يدهس أحدهم عندما يسرع هاربًا.

هل هم لصوص؟

تساءل بينه وبين نفسه، ولكنه تجرّأ وسألهم قبل أن يصلوه:

- لماذا أوقفتهم سيارتكم في الطريق؟

فجأة فتح أبواب سيارته الشابان اللذان جاءا من الخلف وجلسا في المقعد الخلفي، فيما ركب أحد الشابين الآخرين إلى جانبه. وجّه الشاب الذي جلس خلفه مسدسًا إلى رأسه وقال له:

- لا تصرخ ولا تتحرك.

اقترب منه الشاب الذي بقي في الخارج. كان طويلاً في الثلاثين من عمره، وشعره أسود داكن اللون. نظر إليه بعجرفة وقال له هامسًا:

- نحن من الأمن الوقائي، ولدينا أمر باعتقالك، وستذهب معنا الآن إلى أريحا. إذا حاولت الهرب لن تفلت منا.

فقال لهم وقد ارتاح قليلاً لكونهم ليسوا لصوصًا:

- أمن وقائي؟ ما الذي تريدونه مني؟

- ستعلم عندما تصل أريحا. ستقود السيارة خلفي بهدوء. إذا واجهتكم سيارة للجيش الإسرائيلي، ستتصرف بشكل طبيعي وتدّعي أنك ذاهب مع أصدقائك إلى أريحا. إياك أن تصدر عنك إشارة تلفت الانتباه. ستكلفك حياتك.

- أمرك، لكن مستغرب، ماذا تريدون مني؟

- لا تقلق. ستعرف كل شيء عندما تصل. ألست خليل (هـ)؟

- نعم أنا خليل (هـ).

- إذًا أنت من نبحث عنه. هيا الحقني.

عاد الشاب إلى السيارة وحده فيما بقي الآخرون معه. كان يسير بين فكي كماشة، فسيارة أمامه، وأخرى خلفه، وثلاثة معه في سيارته، فإلى أين يهرب، ولماذا يهرب أصلاً؟

بدأ يفكر في الطريق:

(ما الذي يريدونه مني؟ أنا من سكان القدس، وهؤلاء في أريحا، وحسب اتفاق أوسلو لا ينشط الأمن الوقائي في القدس. لكنهم رجال سلطتنا. لا بد أنهم يريدون الحفاظ على أمن البلد. أمن البلد؟ وما علاقتي بذلك؟ هل ارتكبت جريمة؟ هل قدم أحدهم شكوى علي؟ لم أعتد على أحد!)

هز رأسه ثم قال لنفسه:

- لعلهم يريدون التعرف إلي. التعرف إلي؟ يبدو أنني مجنون. لكن لا بأس، سأعرف بعد قليل.

قال للجالس بجانبه:
- هل يمكن لي الاتصال بزوجتي وأخبرها أنني...
قاطعه:
- لا لا تتصل بأحد، ولا ترد على الهاتف.
- على الأقل دعوني أخبرها أنني سأتأخر عن موعد العشاء.
- لا تقلق فقد تعود بعد ساعة. لماذا تشغلها؟
ارتاح قليلاً لإجابتهم، وصار يحلم بالعودة بعد ساعة إلى البيت.

بعد وصوله مقر الأمر الوقائي في أريحا، تم احتجازه في أحد الزنازين دون أن يسأله أحد شيئًا، وكلما حاول أن يسأل أحد أفراد الأمن عن سبب وجوده أجابه:
- لا أعرف.
توترت أعصاب خليل، وصار يبكي كالأطفال.
في زنزانته بعد يومين جاءه أحد أفراد الأمن الوقائي، ونقله إلى إحدى غرف التحقيق. بعد لحظات دخل إليه مسؤول الأمن الوقائي هناك؛ المسؤول (ع). ابتسم له وقال:
- أهلاً وسهلاً خليل (هـ).
نظر إليه خليل، وقال بعد أن تذكّره:
- لماذا أنا هنا؟ لم أبلغ أهلي ...
قاطعه:
- لا تقلق. بلّغناهم أنك في ضيافتنا.

ـ لماذا أنا سجين؟

ـ ألا تعلم؟

ـ كيف سأعلم؟ لم يقل لي أحد شيئًا.

تنهد المسؤول (ع) وقال له:

ـ هناك معلومات أنك تتعاون مع إسرائيل.

اهتز بدن خليل، واحمر وجهه؛ معقول؟ لم يصدق أن يصدر هذا الاتهام من مسؤول كان يومًا ما أسيرًا في سجون إسرائيل، وكان خليل يتظاهر للمطالبة بإطلاق سراحه. رفع رأسه للأعلى وقال له:

ـ أنا؟ تتهمني بالتجسس؟ أنا أشرف ممن نقل لك هذه المعلومات الكاذبة.

ـ وكيف ستثبت لنا ذلك؟

ـ تاريخي يشهد أنني رجل وطني شريف.

نظر إليه المسؤول (ع) نظرة غريبة، ثم قال له بعد لحظة:

ـ اسمعْ. أهم ما يقلقنا الأخبار التي وصلتنا، والتي تشير أنك عازم على بيع قطعة الأرض التي تمتلكها في منطقة رأس العامود إلى المستوطنين.

ـ هذا كذب. أنا لن أبيع أرضي لا لليهود ولا حتى للعرب.

ـ إذًا، لمن؟

ـ لا أحد، سأبني عليها مشروعًا تجاريًّا.

ـ ومن يضمن لنا أنك لن تبيعها غدًا وتهرب إلى أستراليا مثلاً؟

- والله هذا اتهام باطل، وتشكيك بوطنيتي.
- سيد خليل نحن نبذل كل جهدنا لمنع انتقال ملكية الأراضي إلى اليهود، لهذا جئنا بك إلى هنا.
- وماذا تريدون مني؟
- أن تبيع الأرض إلى شخص نثق به لنضمن عدم تسريبها لليهود.
- ولكن لا أريد بيعها.
- طبعًا لأنك اتفقت مع أحد المستوطنين على بيعها بسعر مغر.

ضرب المسؤول (ع) يده على الطاولة، ثم ضغط على زر جرس، ففتح الباب أحد أفراد الأمن قائلاً:
- أمرك سيدي.
- أعد خليل إلى زنزانته، فهو لا يريد التعاون معنا.
- يا عالم والله بريء بريء. ليس لي علاقة لا مع مستوطنين ولا مع يهود.

نقل خليل إلى ساحة خارجية، رملية، وتم عصب عينيه، ثم اقتيد إلى المجهول. فجأة دفعوه إلى حفرة كأنها القبر. طلبوا منه الوقوف بها ويداه مقيدتان، ثم بدأوا يهيلون عليه التراب. شعر أنهم يريدون دفنه حيًّا. زادت دقات قلبه. تصبب العرق من وجهه. كان لا يرى شيئًا، ولكنه يشعر بالرمال تنهار عليه. لم يعد يستطيع تحريك رجليه، ولا يدير رقبته، فكل جسمه أصبح مطمورًا. لم يبقوا إلا الرأس، فماذا ينتظرون؟

فجأة رفعوا العصب عن عينيه، فنظر حوله ليرى أحذية رجال الأمن وأرجلهم. كان كل جسمه تحت الرمال. يكاد يختنق.
باسم الأب والابن والروح القدس أغثني يا رب. أغثني فأنا مظلوم. بدأ يتوسل إليهم:
- والله مظلوم، والله بريء. أنا وطني مثلكم. أحب فلسطين. أحب وطني.
نظر إليه أحد أفراد الأمن الوقائي وقد رقّ لحاله. شعر خليل وكأن ذلك الشاب غير راض عما يفعله، فتوجه إليه بحديثه:
- هل تقبل أن يظلمك أحد؟ هل تقبل أن يتهمك أحد زورًا؟
لم يرد عليه أحد. اقترب منه أحد أفراد الأمن وقال له:
- لماذا لا تستريح من العذاب وتبيع أرضك؟ في المستقبل تشتري غيرها.
- لكني لا أريد بيعها. ورثتها عن المرحوم أبي.
غادر أفراد الأمن المكان بعد أن تركوه وحده يصرخ ويبكي.

جف الدمع من عيني خليل. لم يعد قادرًا على فتح عينيه، فحرارة الشمس حوّلتها إلى كتلة ملتهبة حمراء. شعر أن نهايته اقتربت. كان يحدث نفسه:
- من قال لهم إنني سأبيعها لليهود؟ ولماذا لا يلاحقون الذين باعوا أراضيهم فعلاً لليهود وما زالوا يصولون ويجولون في القدس؟

آخ يا زوجتي فيولا! أين أنت؟ هل تعلمين أنني هنا؟ هل حاولت زيارتي؟ أكيد منعوك.

كيف حال سامي وماري؟ أشعر بالحنين إليهما. أولادي يا قطعة مني. لقد تعبت. لم أعد أستطيع التحمل. ليأخذوا الأرض. سأبيعها. المهم أن أعود لكم.

كان ريقه قد جف، وأصبح يتمنى نقطة ماء.

سمع وقع أقدام خلفه. لم يستطع أن يدير رأسه ليرى القادم، ولكن عندما أحس باقترابه بدأ يصيح:

- ماء. نقطة ماء أرجوكم. سأبيع.

تابعت الأقدام سيرها، حتى كان المسؤول (ع) يقف أمامه. سأله:

- سمعت أنك موافق على بيع الأرض؟

- نعم سأبيعها.

- قرار حكيم. لو وافقت من البداية لوفّرت على نفسك العذاب.

طلب المسؤول (ع) بجهاز اللاسلكي الذي معه أن يأتي أفراد من الأمن لينقلوا خليل من مكانه.

بعد ثوان كان خمسة منهم قد حضروا، فقال لهم:

- أخرجوه إلى الزنزانة ليستحم، وألبسوه ملابسه لكي أراه بعد ساعتين.

بعد ساعتين كان خليل يجلس في مكتب المسؤول (ع) بعد أن استحم وحلق ذقنه. كان مكتب المسؤول (ع) أشبه بمكتب رئيس الوزراء، وخلفه صورة الرئيس ياسر عرفات، والعلم الفلسطيني، وصورة مكبرة للقدس.

المسؤول (ع) يدخن السيجار الفاخر. يجلس على كرسي عريض يميل قليلاً إلى الخلف. ابتسم له ابتسامة عريضة، وقال له:

- سيد خليل نحن يهمنا في الأساس مصلحة الوطن. الأرض التي تملكها كم تريد ثمنها؟ لقد عثرنا على مشتر وافق مكرهًا على شرائها.

فقال خليل:

- الأرض حسب مساحتها وموقعها تساوي مليون دولار.

- مليون دولار؟! وهل تعتقد أن المستوطنين هم الذين سيشترونها؟ أنت تبيعها إلى أحد الفلسطينيين لاستخدامه الخاص.

- سيدي أنا لا أتحدث لا عن مستوطنين ولا عن أجانب. إنها قطعة على الشارع العام.

نفخ المسؤول (ع) دخان سيجاره في الهواء ثم قال لخليل:

- اسمع لن نظلمك. المشتري دفع مائة ألف دولار، ولكنا ضغطنا عليه ليدفع مائتين، وهذه فرصة لا تعوض.

- فقط مائتي ألف؟!

وضع المسؤول (ع) السيجار، وقطّب حاجبيه وقال له:
- اسمعْ لا تضيع وقتي معك. لدي مهمات كثيرة أهم من أرضك. هل تريد تبرئة نفسك من التهمة الموجهة إليك؟
- نعم.
- إذًا وافقْ حتى لا تعود إلى الحفرة التي كنت بها.
أحس خليل أن الدنيا أظلمت أمامه، ولم يعد يميز الأشياء ولا يحس بها.
- لا لا أريد العودة إلى الحفرة. موافق. سأبيع بالسعر الذي تحددونه.
ابتسم المسؤول (ع) ابتسامة واسعة، وعاد إلى سيجاره، ثم قال له:
- الآن بدأت تفكر بالاتجاه الصحيح، وأثبتّ أنك وطني مخلص غيور.
أشار بيده إلى رجل الأمن الواقف بجانبه، فخرج وعاد مع مجموعة من الرجال.
قال المسؤول (ع) لخليل بعد أن دخلوا وجلسوا على المقاعد:
-هذا المحامي عطا معه أوراق عقد البيع لكي توقع عليها، وهذا عبد الستار أحد تجار البلد الذي وافق على شراء الأرض، وبيده حقيبة الفلوس. لن تخرج قبل أن تعدها كاملة، وسيوصلك إلى البيت رجالنا بأمان، وهذا سعيد، وذاك أحمد من شهود العقد. كل شيء جاهز لدى المحامي؛ نص العقد، ورقم القطعة

الحوض...الخ. لم يبق إلا أن تزودنا بنسخة الطابو الأصلية، بعد رجوعك سالمًا إلى البيت تعطي النسخة إلى هذا الشرطي ليعود بها إلي.

نظر خليل إليهم واحدًا واحدًا؛ شعر بغصة في حلقه.

فقال له:

- أمرك سيدي.

قدم المحامي الأوراق وقال لخليل:

- هذا نص العقد اطلع عليه.

فقال خليل:

- موافق دون أن أقرأ. أين مكان التوقيع؟

فأشار إليه المحامي، فوقع على العقد، وكتب رقم هويته على الورق، ثم وقع المشتري، والشهود جميعًا. بعد ذلك قدّم التاجر عبد الستار حقيبة الفلوس، وقال له:

- عدّها.

نظر خليل إليه بحزن وقال في سره:

- أعدها؟ لقد لطشتم مني مئات الآلاف، فهل سأهتم بنقص مئة دولار أو ألف أو حتى عشرة.

نظر إلى الفلوس. قلّبها بيديه ثم قال له:

- العدد كامل، وصلني حقي.

فوقف المسؤول (ع) وسلم عليه، ثم قال له:

- مبروك. لا تنسى الحلوان.

بعد ذلك صافح التاجر عبد الستار، ثم المحامي.
أشار المسؤول (ع) إلى الشرطي بيده وقال له آمرًا:
- خذ خليل بسيارة المرسيدس المدنية ذي الرقم الأصفر إلى بيته مع أبو السعيد، ولا تعد إلا ونسخة الطابو معك، مفهوم؟
- أمرك سيدي.
خرج خليل خلف الشرطي وهو يبكي داخليًّا على بيع الأرض بهذا السعر الزهيد. كان كمَن فقد ابنه في حادث وعاد يحمل ديّته معه.
بعد خروجه، غمز المسؤول (ع) المحامي بعينه، فطلب المحامي من الشاهدين الانتظار في الغرفة الأخرى لعدة دقائق.
بعد أن خرجا، ولم يبق في المكتب سوى المسؤول (ع)، وعبد الستار، والمحامي، ضحكوا جميعًا، وضرب كل منهم كفّه بكفّ الآخر شعورًا بالنصر المبين. قال المسؤول (ع) لعبد الستار:
- هات العمولة.
فقدم له حقيبة بثلاثمائة ألف دولار، فنظر إليه قائلاً:
- هل تعتقد أنني أشحذ منك؟ إنها تساوي مليون دولار.
- هذا ما يدعيه خليل.
- وهل تعتقد أنني غريب عن البلد؟ غدًا تحضر بقية العمولة قبل أن تستلم نسخة الطابو الأصلية كما اتفقنا لي النصف ولكم الباقي.
- دائمًا تريد حصة الأسد؟!

ـ وهل كنت تتوقع الحصول على الأرض بدوني، وقل لي أين سنسهر الليلة.

ـ في بيت صديق لي هنا في أريحا.

ـ وهل السهرة كاملة؟

ـ من كل شيء. هناك تشكيلة من العيون الخضراء والزرقاء وصلت حديثًا من أوكرانيا وروسيا.

ـ أنا أموت بالروس، والفلوس.

ها ها ها.

ضحكوا جميعًا حتى بانت أسنانهم.

❖ ❖ ❖

البطاقة الزرقاء

فـي أواسـط الثمانينيـات مـن القـرن العشرين تزوجتهـا، بعـد أن تعرفت إليها في جامعة بير زيت التي أنهيت دراستي فيهـا. كنـت مـن القـدس، وهـي مـن رام الله التـي لا تبعـد عن القـدس كثيـرًا، فهي على حدودها الشمالية.

بعد الزواج انتقلت معي للسكن في القدس، فـي بيتنـا الكـائن فـي رأس العامود قرب مفرق أبو ديس.

سكان القدس يحملون بطاقات هويـة زرقـاء، أمـا بطاقـة زوجتـي فكانت برتقاليـة اللـون مثل سـائر سكان الـضفة. بطاقاتنـا تـصدر عن مكتب وزارة الداخلية الإسرائيلية، أما بطاقتهم فكانت تصدر عن الحكم العسكري الإسرائيلي. تسميات مختلفة والأداة واحدة.

لم تكن البطاقات تحدّ من تحرك سكان الـضفة فـي القدس، ولكنـا كنـا مـضطرين لتقديم طلـب رسمي للـمِّ الـشمل، وتحويـل بطاقـة زوجتـي إلـى بطاقـة زرقـاء، كـي تـستطيع الانـضمام إلـى نظـام التأمين الصحي الذي لا يشملها، ولكـي تـستطيع التحـرك بحريـة عنـدما يـضعون نقـاط التفتـيش أثنـاء مناسـباتهم الرسـمية، وتحركات شعبنا الوطنية.

كانت مفاجأتنا كبيرة عندما رفض الطلب دون ذكر الأسباب. قـال لنـا المحامي: لا يوجد قانون رسمي يمكن الاسـتناد إليـه، فمكتـب الداخليـة يتعامـل معنـا كمـواطنين مـؤقتين فـي دولـة إسـرائيل، والأمر كله بيد المخابرات، وعندما راجع المخابرات، قيل لـه إننـا كنـا أثنـاء الدراسة الجامعية من الناشطين ضد الاحتلال.

عندما انطلقت الانتفاضة الأولى، وبدأت إسرائيل تضع الحواجز العسكرية على الطرق، بدأت زوجتي تجد صعوبة في التنقل، خصوصًا عندما كانت تضطر إلى أخذ الأولاد أو أحدهم إلى المستشفى، أو عيادة طبيب ما.
قدّمنا طلبًا جديدًا على الرغم من علمنا أنهم سيرفضونه، واحتفظت زوجتي بإيصال استلام الطلب من مكتب الداخلية، وصارت تستعين به للمرور عن نقاط التفتيش. بعض الجنود كانوا يسهلون مرورها، ولكن آخرين كانوا يعيدونها إلى الضفة الغربية.

وعندما وقع عرفات اتفاقية أوسلو، ورقص بعض الشبان الفلسطينيين للسلام المنشود، قلت لزوجتي:
- أكيد قضيتنا ستحل الآن.
تفاءلنا كثيرًا، وانتظرنا رفع الحواجز، ولكنها لم ترفع، بل زادت، وأصبحت هناك نقاط ثابتة تشبه نقاط الحدود العسكرية بين الدول، فالحاجز الموجود قرب مخيم قلنديا بين القدس ورام الله يمنع المواطنين من الدخول دون تفتيش، وبدون بطاقة القدس الزرقاء، حتى حاملي التصاريح كانوا يعودون أحيانًا لعدم السماح لهم بالعبور.
كانت زوجتي عندما تزور أهلها في رام الله تعود عبر طريق ترابية بعيدًا عن أعين الجيش، ولكنها طريق خطرة، يهاجمها

الجيش أحيانًا، ويطلق النار على المارين فيها، أو يقوم باعتقالهم، لذلك توقفت عن زيارة رام الله، ولكنها لم تنج من ملاحقة دوريات الشرطة والجيش التي تملأ الشوارع والطرقات تسأل المواطنين عن بطاقاتهم.

لم تكتف إسرائيل بذلك، بل أمرت سواقي الحافلات وسيارات الأجرة بعدم نقل أي راكب لا يحمل هوية القدس، فصار أي سائق مضطرًا أن يطلب من المواطنين إبراز بطاقاتهم الشخصية قبل السماح لهم بركوب الحافلة أو سيارة الأجرة، لأنه في حال ضبط أحد مواطني الضفة في إحدى الناقلات يتم مصادرة الناقلة لفترة من الزمن، وتغريم سائقها مبلغًا من المال يساوي ثلاثة أضعاف دخله الشهري.

اللعنة على إسرائيل؛ جعلتنا في مواجهة بعضنا بعضًا.

بعض السائقين كانوا يدققون في بطاقات الركاب كالجنود، أما الآخرون فكانوا يتغاضون عن ذلك، ولكنهم عندما يرون نقطة تفتيش قريبة يقفون ويسألون الركاب مَن كان لدية بطاقة من الضفة فلينزل هنا ويهرب.

لطالما هربت زوجتي، ولعل كونها امرأة ساعدها بعض الشيء في التسلل من بين دوريات الجيش، ولكن الأمور ساءت بعد انتفاضة الأقصى العام (٢٠٠٠)، ولم تعد زوجتي قادرة على التخفي والتسلل كما كانت سابقًا، فقد أصبحت أمًّا لخمسة أكبرهم على وشك الالتحاق بالجامعة.

أعدنا الكرّة مرة أخرى عبر محام جديد، فكانت المفاجأة أنهم وافقوا على منحها الإقامة في القدس بتصريح فقط، وبقيت بطاقتها كما هي، لكنها لم تعد تصدر عن الحكم العسكري، بل عن السلطة الفلسطينية، وتغير لونها من البرتقالي إلى الأخضر، حيث اعتبروها مواطنة فلسطينية تقيم في دولة إسرائيل.
كان التصريح مؤقتًا لمدة ثلاثة شهور، وكلما انتهى قدّمنا طلبًا جديدًا، ودفعنا رسومًا إضافية جديدة. أحيانا كانوا يماطلون في تجديده، وأحيانًا لا يردّون علينا حتى نقدم طلبًا جديدًا.
عادت زوجتي تواجه الجيش مرة أخرى، فالمواجهة بيننا وبينهم حتمية؛ هكذا أرادوها.

في أحد المرات في العام (٢٠٠٥) انتهى تصريح زوجتي، ولم يصلها التصريح الجديد كالعادة. كان الوقت مساء. كنا متجهين لزيارة أحد الأقارب من بيتنا في رأس العامود إلى بيتهم في الطور. بعد انتهاء السهر، عدنا من هناك مشيًا على الأقدام من الطريق القريبة من فندق (الإنتركونتنتال)، فالمسافة من هناك ليست بعيدة، ونادرًا ما تتواجد دوريات للجيش في المساء، لكن حصلت المفاجأة؛ كانت دورية للمخابرات كامنة هناك، وعندما استدرنا إلى أسفل الشارع وجّهوا نحونا ضوء سيارتهم العالي، وطلبوا منا بالعبرية التوقف ورفع الأيدي.
تسمرنا مكاننا خوف أن يطلقوا علينا النار.

طلبوا منا أن نتقدم باتجاههم واحدًا واحدًا. ذهبت أنا أولهم، وعندما اقتربت طلبوا مني البطاقة، فقدمتها لهم. قلت لهم: هؤلاء أولادي، وتلك زوجتي، ونحن في الطريق إلى بيتنا القريب هنا. الأولاد الصغار لا يحملون بطاقة هوية، ولكنهم مسجلون في بطاقتي. طلبوا مني الوقوف في الجهة الخلفية للسيارة والاستدارة نحو الوادي كي لا أرى ما يفعلون، ثم نادوا الأبناء واحدًا واحدًا، وعندما جاء دور زوجتي سألوها عن البطاقة، فقدمت التصريح. نظروا إليه، ثم قالوا لها:

- هذا تصريح قديم.

- ولكني قدّمت طلبًا جديدًا، وانتظر وصول التصريح الجديد.

فقال لها أحد رجال المخابرات:

- هذا ليس من اختصاصي. أنت هنا بطريقة غير شرعية. يجب أن تعودي إلى رام الله.

- ولكني أسكن هنا.

- لا يوجد تصريح.

سمعت الحديث، فحاولت التدخل لشرح الموضوع.

فقال لي:

- يا حمار لا تتكلم، اخرس.

فتدخل ابني البكر، وبدء يجادلهم بالعبرية، فثارت ثورتهم، وأمروا باعتقالها لأنها موجودة في القدس بدون تصريح، وطلب منا الانصراف قبل أن يطلق النار علينا.

خافت زوجتي علينا، فرجتنا أن نذهب إلى البيت، وصعدت إلى سيارتهم مكبلة اليدين إلى سجن المسكوبية.
بعد أسبوع كامل أفرج عنها القاضي بعد أن فرض عليها غرامة مالية بقيمة (٢٠٠٠) شاقل لأنها موجودة في القدس بدون تصريح. حاول المحامي أن يشرح للقاضي أنها متزوجة منذ أكثر من عشرين سنة، ولكنه لم يغير رأيه.
عدنا إلى البيت ونحن لا ندري متى ستنتهي هذه الأزمة.

قال لي أحد الأصدقاء: لماذا كل هذا التعب؟

فسألته: ما الحل؟

- هناك أشخاص أعرفهم يصدرون بطاقات زرقاء تساعدك على تجاوز نقاط التفتيش.

- تقصد مزوّرة؟

- ليست بالمعنى الكامل، فهي تضم المعلومات نفسها في البطاقة البرتقالية، ولكن يتم وضع مكان الإقامة والولادة القدس، ويصبح لونها أزرق، تكون احتياطية تستخدمها فقط في الحالات الاضطرارية.

عرضت الفكرة على زوجتي فوافقت، وقالت:

- هذا أسهل مما أنا فيه.

- وماذا لو كشفوا أمرك؟

- سأكون حريصة أن لا أقدّمها كل مرة، فهمْ نادرًا ما يدققون بالبطاقات. ينظرون إلى اللون والصورة.
توكلنا على الله، وأصبح لدى زوجتي بطاقتان؛ واحدة خضراء، والثانية زرقاء لا تستخدمها إلا عندما يتأخر صدور التصريح الذي يُمنح لها بين الفنية والأخرى.
هكذا إذًا صرنا في وطننا كالمهاجرين غير الشرعيين يبحثون عن طريقة لإثبات ذاتهم.

في إحدى الليالي، سمعنا طرقًا على الباب، فاستيقظت لأرى من الطارق، فإذا بعدد من رجال المخابرات الإسرائيلية وقوة من الجيش يضربون الباب ببنادقهم، ثم يدخلون: أين زوجتك؟
- ماذا تريدون منها؟
- مقيمة في القدس بدون تصريح.
دخل الجنود للتفتيش مع أحد رجال المخابرات، لم يتركوا غرفة لم يفتشوا بها، وبالصدفة قبل أن ينهوا مهمتهم وجد مسؤولهم بطاقتي زوجتي الزرقاء والخضراء، فقال لنا:
- تزيفون البطاقات؟
قلت له:
- لا نزيّف شيئًا. إنها المعلومات نفسها. أنتم أجبرتمونا على ذلك.
سألني:

ـ من أصدرها؟

ـ لا أعرف.

هز رأسه، وأمر باعتقال زوجتي.

وبعد انتهاء التفتيش، كانت زوجتي قد اقتيدت إلى مقر المسكوبية، فيما بقينا أنا والأولاد نلعن إسرائيل والاحتلال، وندعو الله أن يفكّ أسرها.

قلت للأولاد مهدئًا من روعهم:

ـ لا تقلقوا. غدًا سأوكل محاميًا يتابع قضيتها. لن يطول اعتقالها.

فرد على أحد أبنائي:

ـ ولكن كيف نضمن ألا يعتقلونها مرة أخرى؟ لماذا يمنعونها من الإقامة في القدس مثلنا؟

سؤال محير فعلاً. لم أعرف كيف أرد عليه، ولكن السؤال الأكثر حيرة الذي ظل يراودني تلك الليلة:

إلى متى نتركهم يعيثون في فلسطين فسادًا؟

❖ ❖ ❖

الجندول

ظل يراسلها سرًّا في سبعينيات القرن العشرين عندما كانا طالبين، وبعد أن بادلته الحب؛ تواعدا على اللقاء في مكان لا يراه فيه أحد من أهليهما.
كان الجندول المكان المفضل لديه، فهو عبارة عن كافتيريا من الدرجة الأولى في القدس يقع في شارع الزهراء، يجلس فيه الزبائن في الطابق العلوي بعيدين عن أعين الناس. أسعار المشروبات فيه عالية مقارنة بالمحلات الأخرى، لذلك لا يرتاده سوى السياح، وبعض العشاق، وأشخاص ليسوا من أهله ولا أهلها.
كان يختار أوقات وأيام لقائه معها في الفترات التي يكون المحل خاليًا، أو شبه خال من الزبائن، ليأخذ راحته في وصف حبه لها، وليستطيع أن يسرق منها بعض القبلات بعد أن تتمتع قليلاً. القبلات التي يقطفها العاشق من معشوقته وهي تحاول التمنع خجلاً لها طعمها الخاص، وفيها سحر رائع، ولذتها تسري في الروح قبل الجسم.

لم يدم لقاؤه بها سرًّا، فقد اتفقا على الزواج. تزوجها ليحقق معها حلمه الأكبر في الحياة، وقد عاهدها أن تكون كل حياته. حبه لها سيطر على تفكيره، فكان لها عونًا في كل شيء.

سعادته لها لم تدم طويلاً، فقد اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلي بتهمة مقاومة الاحتلال، وحكمت عليه بالسجن لمدة عشرين

عامًا. لكن زوجته منال لم تتركه في السجن يعاني وحده، فقد أقسمت أن لن تتركه، ولن تتخلى عنه، وستنتظره حتى يفرج عنه. كان فخورًا بها يتلهف لزيارتها كل أسبوعين مرة وحدها، وأحيانًا مع والدته، وقد وجدت وظيفة لها ساعدتها إضافة إلى مخصصات الأسرى على تكاليف الحياة.

لكن أمه فتحية لم تترك الزوجة بحالها، فقد اغتاظت أنها تحصل على راتب (مخصص) ابنها الشهري من مكتب الأسرى والبالغ حوالي سبعين دينارًا أردنيًّا، فبدأت تخطط للتخلص من زوجة ابنها.

في البداية أجبرتها على التوقف عن زيارته لفترة من الزمن بحجة أن أعمامه يريدون زيارته (عدد الزوار لكل أسير ثلاثة فقط في الزيارة الواحدة)، ومرة بحجة أن أخواله سيزورونه، وأخرى بحجة أن أولاد عمه سيزورنه. كانت تستغل تلك الزيارات لتخبر ابنها أن زوجته تخطط لتركه، وأنها... والعياذ بالله... لا... لا... لا يجوز الظن بالسوء.

- ماذا يا أمي أخبريني؟

- لقد شاهدتها مع شاب تسير بالقرب من مدرسة دار الطفل العربي.

- معقول؟!

- وهل يمكن لأمك أن تكذب عليك؟

لم يتحمل ماجد الخبر الذي هزه من الأعماق! هل يمكن أن تكون أمه قد أخطأت؟ لكن لماذا لم تأتِ لزيارتي منذ مدة؟

سألها بعد أن عادت لزيارته بعد شهرين، فقالت له:

- أمك أخبرتني أن أعمامك وأخوالك سيتناوبون على زيارتك.

لكن أمه التي جاءت معها بالزيارة نفسها أنكرت ذلك، وقالت لابنها:

- لا تصدقها يا ماجد. لم يطلب أحد من أعمامك زيارتك. كلهم مشغولون.

نظرت إلى حماتها مستغربة، وقالت لها:

- أنسيت أنك قلت لي...

- يا بنيتي لا تقلقي، فماجد يحبك حتى لو لم تزوريه.

بدأ الشك يسري في قلبه، وأمه تحرضه كل زيارة حتى أوصلته إلى قناعة أن يطلقها.

- طلّقها يا ماجد. هل ستنتظرك عشرين سنه؟

في لحظة غضب قرر طلاقها، وقضى بيده على أجمل لحظات حياته.

سعدت أمه بالخبر، فأحضرت معها في الزيارة التالية أحد رجال الدين العاملين في المحكمة الشرعية، حيث طلّق ماجد زوجته أمامه، وعندما علمت منال بالخبر من المحكمة الشرعية، صدمت ولم تصدق، فحاولت زيارته لاستيضاح الأمر، ولكن أهلها منعوها، وقالوا لها:

- كيف تزورينه بعد أن طلقك وأرسل لك ورقة الطلاق، ولم يكلف نفسه أن يراك أو يناقشك بالأمر؟

لم تصدق منال أن ينهار حبها مع ماجد بهذه السرعة.

تذكرت لقاءاتها معه، وكلماته الجميلة، وقسمه الدائم:

- منال أقسم بفلسطين وشرف الثوار أن تكوني المرأة الوحيدة في حياتي.

كانت تتساءل والدموع تسيل من عينيها:

- أين شرف الثوار يا ماجد؟ لماذا أقسمت بفلسطين وحنثت اليمين؟

أرسلت له رسالة إلى عنوانه في سجن بئر السبع تسأله لماذا فعلت ذلك؟ أين حبك ووفاؤك؟ أنسيت زياراتي لك أثناء التحقيق؟ أنسيت إصراري على انتظارك حتى عشرين سنة؟ لماذا تغيرت؟ هل تغير القضبان الإنسان؟

هل تتغلب القضبان على الثوار فيتنازلون عن أحبتهم؟

وصلته الرسالة فهزته من الأعماق. ما الذي فعله؟ هل تسرّع؟ ماذا يقول؟

رد عليها برسالة حاول فيها أن يبرر تصرفه بحبه لها وحرصه على مصلحتها حتى لا تنتظره عشرين عامًا.

لم تصلها الرسالة، فقد صادرها أبوها حينما وصلت ،ولم يعلمها بها. كان أبوها مصدومًا من قرار ماجد. يلعن الثوار الذين على

شاكلته. الثوار غير الأوفياء الذين لا يقدرون تمسك زوجاتهم بهم.

كان أول شيء قامت به أمه، بعد أن صدرت وثيقة الطلاق، تقديم نسخة منها إلى مكتب الأسرى لإيقاف صرف الراتب إلى زوجته، وتحويله إلى أمه التي كانت تصرفه على البيت رغم أنها لم تكن بحاجة إلى شيء، فقد كان أبوه يقوم بواجبه تجاه بيته، وكلما كان والده يسأل زوجته عن الراتب، تقول له إنها تصرف منه على البيت، وتخبئ الباقي لابنها حتى يجد ما يساعده بعد خروجه من السجن.

العام (١٩٨٥) كان عامًا مميزًا في حياة ماجد، ففيه جرت عملية تبادل الأسرى مع القيادة العامة، وكان اسمه في قائمة المحررين. ما أجملها من لحظات؛ لحظات التحرر من الأسر رغمًا عن المحتل وجبروته!

سبع سنوات فقط أمضاها خلف القضبان، وها هو يعود إلى نبض الشارع من جديد.

كان أول شيء بحث عنه منال. أين هي؟ ما أخبارها؟

وأخيرًا وجد ضالته. كانت تعمل في جمعية الدراسات في القدس. اقتحم عليها غرفتها ليراها بعد غياب. كانت منهمكة في إعداد بعض الملفات. نظر إليها. كانت قد ازدادت جمالاً... رأته بعد أن غيرت القضبان تقاطيع وجهه .قال لها:

- منال! ثم ابتسم.
- فوجئت به أمامها بعد ما فعله بها. لم تبتسم. اكفهر وجهها، وزادت دقات قلبها. قالت بجفاء:
- أهلاً.
- ألن تهنئيني بالسلامة؟
- بعد ما فعلته؟
- منال! هل يمكن لنا أن نتحدث؟
- لماذا لم ترد على رسالتي الأخيرة إليك؟
- أرسلت لك ردًّا والله العظيم.
- لم أستلمه.
- هناك أشياء حتى لو افترقنا يجب أن نتحدث بها. ما رأيك في الجندول؟
- الجندول؟ لا لن أعود إلى هناك مرة أخرى.
- لماذا؟ أتخافين من استعادة الذكريات؟
- لا أريد للأماكن الجميلة أن تتلوث.
- حسنا أين؟
- هنا في الحديقة.
- أمام الناس؟
- نعم. ليس لدينا ما نخفيه عنهم.
بعد ساعة التقيا في حديقة الجمعية واقفين حتى لا تطول الزيارة.

سألته قبل أن يسألها:

- لم فعلتها؟

- تنهد قليلاً، واعترف لها بما وصله من أمه عنها.

- أنا؟ وطبعًا صدقتها!

- لم أتوقع من أمي أن تفسد بيننا. أعترف أنني أخطأت. هل أنت متزوجة الآن؟

- لا لم أتزوج.

استراح لجوابها، ثم قال:

- هل يمكن إعادة الماضي؟

ضحكت بأسى:

- ليتنا نستطيع إعادة الماضي. لكن للأسف الحياة طريق باتجاه واحد.

- منال، أقسم لك أن ما مضى لن يعود، وأنني سأعوضك عن كل شيء.

- قلتها بنفسك: ما مضى لن يعود.

- أقصد طلاقي لك. أنا أحبك يا منال.

- لو كان حبك صادقًا ما تخليت عني بتلك السهولة.

- أقسم بشرف الثورة...

قاطعته:

- لا تحلف بشرف الثورة حتى لا تحنث بيمينك من جديد.

- لماذا أنتِ قاسية إلى هذا الحد؟

ـ ألم تكن قاسيًا عندما طلقتني حتى دون أن تسمع مني؟ ألم تكن قاسيًا عندما هدمت حبًّا بنيناه معًا؟ ألم تكن قاسيًا عندما تخليت عنـي، وأنا التي تمسكت بك وأنت ترزح خلف القضبان أسيرًا أطارد لأجلك من سجن إلى سجن، لأشد على يديك، وأحييك على صمودك الرائع؟ ألم تكن قاسيًا أيها الثائر الذي ضحى من أجل فلسطين بروحه، وطلّق زوجته استجابة لرغبات أمه لتحرم زوجة ابنـها من راتب زوجها الأسير؟ ألم...

ـ كفى يا منال كفى.

تساقطت دموعه على خديه. ودّعها، وغادر الجمعية عائدًا إلى البيت نـادبًا حظّه التعيس.

ـ أمي لماذا اتهمت منال وحرضتني على طلاقها؟.

ـ وهل اشتقت لـها؟ لا تقلق. غدًا تتزوج أحسن منـها.

ـ يا أمي أنـا لا أسألك عن الأحسن. أنـا أسألك لماذا فعلت ذلك؟

ـ لقد فعلت ذلك لمصلحتك؛ لماذا تقبض راتبك الشهري من مكتب الأسير وأنت بالسجن محكوم عليك عشرين سنة؟ لقد وفرت لك المبلغ. لديك أكثر من عشرة آلاف دولار. من أين لـي أن أعرف أنك ستخرج من السجن في صفقة تبادل أسرى؟

ـ أهذا كل ما همك يا أمي؟ الراتب؟

ـ وهل ارتكبت جريمة؟

ـ بدأت أمه تبكي، وتقول:

ـ لم أتوقع منك هذه المعاملة القاسية.

اعتذر لها، وقبّل يديها، وغادر البيت.

توجه فورًا إلى الجندول. لم يعد الجندول كما عرفه؛ تغير زبائنه. جلس وحيدًا يستعيد تلك الأيام الجميلة مع منال.

هناك كانت تجلس. هناك كان يسامرها. بجانب ذلك الشباك كانا يجلسان يراقبان المارة خوفًا من دخول المحل أحد الأقارب فيكتشف سرهما.

سأله النادل: ماذا تشرب؟

قال له: علبه بيرة.

لم يشرب البيرة في حياته، لكنه سيجربها، لعلها تسكره.

البيرة المشروب الوحيد الذي يباع هناك.

ـ أتريد أن تسكر يا ماجد؟ كان يخاطب نفسه.

ـ نعم أريد أن أسكر.

ـ أهكذا الثوار؟

ـ نعم هكذا، وهل الثوار ملائكة؟ هل هم أنبياء؟ ألم يخطئوا مثل غيرهم؟

ـ وماذا لو رآك أحدهم؟

ضحك ثم قال :

ـ سأدعوه ليشرب معي نخب منال.

كان ماجد كلما فرغت علبة بيرة طلب غيرها، وكان يدخن سيجارة إثر سيجارة، وعندما لم يعد بطنه يتسع غادر المكان يتمايل.

في الطريق التقاه بعض معارفه. سلّموا عليه، وشموا رائحة البيرة المنبعثة من فمه. استغربوا ذلك. تغامزوا عليه. سأله أحدهم:

- ما الذي شربته؟

- بيرة على شرف منال.

- منال؟ يبدو أنك سكران؟

- سكران؟ من قال ذلك؟ أنا بخير.

تركوه، وتابعوا سيرهم.

عرف أنهم اشمأزّوا منه ومن رائحته. في الطريق إلى شارع صلاح الدين وقف أحد الأسرى السابقين الذي يعرفه من السجن. سلّم عليه بعد أن رآه وهنأه بالسلامة.

أحس عوني أن ماجد تفوح منه رائحة المنكر، فسأله:

- ما الذي فعلته؟ أتسير سكران بين الناس؟

- أنا سكران؟

- ماجد أفقْ من سكرك. إنك مثال للأسرى رمز الوطن والشعب. بهذا التصرف أنت تسيء لهم. اذهب إلى البيت، ولا تخرج إلا غدًا. حرام ما تفعله حرام.

- حرام؟!

بعد أن تركه عوني أشار إلى سيارة الأجرة المتجهة إلى رام الله. استقلّ السيارة ذاهبًا إلى البيت وهو يتساءل في الطريق.

- حرام؟ أليس ما فعلته أمي حرامًا؟ أليس ما فعلته معي منال حرامًا؟ أليس الاحتلال حرامًا؟ أليست القضبان حرامًا؟ أليست قسوة منال حرامًا؟ لماذا يتركون كل هذا الحرام ويتذكرون فقط البيرة؟

وصل البيت، فاستقبله أبوه بالصراخ:

- ماجد سكران؟

- أمي السبب!

- أمك؟ هل قالت لك أن تشرب الزفت؟

- أمي السبب؛ هي التي جعلتني أطلّق منال.

كلكم تآمرتم علي. تركتموني أسيرًا، وتصارعتم على راتبي الشهري. لم تهمكم مشاعري ولا حبي. لا لا لست سكران. أنتم السكارى، وأنا الوحيد الصاحي بينكم.

نظرت إليه أمه، وقالت له:

- وهل ستعود لمنال ثانية؟

- ليتها وافقت، لكنها رفضت. منال رفضت. معها حق، فأنا كسرت قلبها. طعنتها. أنا الثائر المغوار. ثائر على الاحتلال، ولكن مستسلم للإشاعات والأقاويل الفارغة.

- وهل الحل بالسكر؟

- من قال إني سكرت من البيرة؟ أنا...

أنا سكران مما فعلتِهِ بي يا أمي.

ثم سقط على الأرض دون حراك.

(تشرين أول ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

الحاج سمور

كان الحاج سمور يسير في الشارع المؤدي إلى مدرسة طارق بن زياد في مدينة الخليل عصر يوم الأربعاء من شهر تشرين أول (١٩٩٥) عندما سمع صراخ فتاة خلفه. استدار إلى الخلف، فرأى صبية تركض هاربة وخلفها شابان في العشرينيات من العمر أحدهما يحمل سكينًا كبيرة. كانت الصَّبية تصرخ بأعلى صوتها طالبة النجدة من المواطنين، وعندما اقتربت من الحاج سمور احتمت به، وضعت يدها على حزامه قائلة:

- أنا بعرضك يا حاج (أنا بحمايتك). [وضع اليد على الحزام قمة الاستجارة والتذلل، وعادة لا يرد طلب المستنجد].

احتار الحاج سمور في الأمر، ولكنه لم يتردد في قبول استجارتها، وحل المشكلة مع الشابين المهاجمين، فقد عرف بخبرته الطويلة في لجان الإصلاح وحل الخلافات العائلية أن المهاجمين لا بد أن يكونا من العائلة، والسبب كما يبدو قضايا الشرف التي ينظر إليها المسلمون في فلسطين بحساسية.

وقف الحاج سمور الذي تجاوز الستين من عمره أمام الشابين طالبًا من الفتاة التمترس خلف ظهره، وعندما اقتربا قال لهما:

- اهدأا. هذه الآن بحمايتي. أنا الحاج سمور. دعونا نحل الخلاف بهدوء. لا تتركا لحظة غضب تسيطر عليكما، فترتكبا جريمة تندمان عليها.

صرخ به أحدهما:

- اتركها يا حاج سمور أحسن لك. هذه العاهرة لطخت شرفنا بالعار.

كانا يتحيّنان الفرصة لجرها بعيدًا عن الحاج سمور. لا يريدان إيذاءه، فقد عرفاه؛ إنه أحد كبار رجال البلد ووجوه الإصلاح فيها. من لا يعرفه في الخليل؟ إذا اعتدى عليه أحدهم فلن يسلم من عائلته؟! لكن ساعة الغضب لا أحد يضمن نتائجها.

قال لهم الحاج سمور:

- هذا حق لكما أن تغارا على عِرضكما الذي هو عِرضي وشرفي، وأنا معكما في محاسبتها، ولكن هل تأكدتما يا أولادي؟ هل دققتما، أو إنها لحظة انفعال عاطفية؟ إنها فتاة صغيرة، طالبة مدرسة على ما يبدو، حتى لو حصل ما ببالكم، فالإسلام أوجب الجلد وليس القتل. لا تتركا الشيطان يسيطر على مشاعركما. دعوني أحل المشكلة.

- لا.. لا تتدخل. قلنا لك ابعد عنها قبل أن ينفذ صبرنا.

ثم وجّه الأخ الثاني كلامه لها:

- يا حيوانة ابعدي عنه. لن تهربي منا.

تقدم الأخ الثاني منها ليسحبها من خلف ظهر الحاج سمور، فمد الحاج يده، وقال له: توقف. قلت لك إنها بحمايتي.

نفذ صبر الشابين. مد يده الأخ الأكبر إلى جيب سترته وأخرج مسدسه منه. وضع الرصاصة جاهزة للإطلاق، وهدد الحاج سمور إن لم يتركها سيقتلهما معًا.

اهتزّ بدن الحاج سمور:
- أتهددني أنا؟ يا عيب الشوم. أين أخلاق الخليل وشهامتها؟
- يا حاج سمور دخيلك اتركها.
هجم الاثنان معًا. لم يستطيع الحاج سمور المقاومة. إنه الموت بانتظارها وحدها أو معًا. إنها لحظة الغضب المزيف الذي لا يستطيع أحد الوقوف أمامه.
كأنه استسلم لهما. مد الشاب الأصغر حامل السكينة يده على شعرها. سحبها بقوة وهي تصرخ:
- أنا بحمايتك يا حاج سمور. أنا بعرضك. من أجل الله احمني حماك الله.

كان المارة الذين لاحظوا الحدث من أوله قد تجمعوا من بعيد يتفرجون كأنهم يتفرجون على فلم سينمائي. لا أحد يحاول فعل شيء. كلهم صمتوا كأنهم يوافقون ضمنيًّا على الجريمة.
قال أحد كبار السن الذي وقف يتفرج:
- يا حاج سمور، اتركها لأهلها ليغسلوا عارهم بأيديهم. نحن لا نجير العاهرات.
بدأ الأخ الأصغر يصرخ وهو يطعنها بالسكين طعنه إثر طعنة:
- يا عاهرة هذا جزاؤك.
فيما كانت تصرخ كلماتها الأخيرة:
- بريئة يا عالم بريئة. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.

فجأة شقت جموع المتفرجين امرأة تلبس الحجاب وهي تصرخ:
- ابنتي.. ابنتي بريئة يا عالم. حرام عليكم.. حرام عليكم.
اختلطت الأصوات مع صوت الحاج سمور الذي كان يصرخ بهما:
- لقد قتلتماها وهي بحمايتي. لن أغفر لكما هذه الجريمة.
قبل أن تصل الأم لترمي نفسها على جثة ابنتها على الأرض تقدّم الأخ الأكبر فأطلق على رأسها طلقة ليؤكد وفاتها.
ارتمت الأم على جثة ابنتها باكية منتحبة، ملطخة نفسها بدمها.
- قتلكِ أخواك يا ميسون.. قتلك المجرمان.
رفعت رأسها إلى الحاج سمور وسألته:
- لماذا لم تحمِها يا حاج سمور؟ لماذا لم تجرها؟ كيف وقفتم كلكم صامتين؟.
وقفت ونظرت إلى جمهور المتفرجين من الرجال قائلة:
- وقفتم تتفرجون عليها، وتقتل دون أن تحموها. يا عاركم! هل أنتم رجال؟ اذهبوا وليحلق كل منكم شاربه، فلستم سوى مجموعة من النساء يطيب لهن التفرج على قتل الضحايا!
كلكم قتلة.. كلكم شاركتم بقتلها بصمتكم.. بعجزكم حكمتم عليها أنها المجرمة حتى دون أن تسمعوا دفاعها. أخذتم برأي القاتل. هل تعرفون لماذا؟ لأنه رجل مثلكم أنتم يا من ترتكبون الخطايا وتعاقبون الضحايا.. أنتم الشرفاء! يا لشرفكم الذي تلطخه إسرائيل كل يوم وأنتم عاجزون عن حمايته. ماذا تختلفون عن

الحكـام العـرب الـذين يـشاهدون إسـرائيل تقتلنـا كـل يـوم فـي فلـسطين وفـي لبنـان دون أن يفكّـر أحـد فـيهم بتحريـك جيـشه لحمايتهـا؟!. إنهـم صـورة مكبـرة لكـم. تركتموهـا لتقتـل، ولكـنكم نسيتم أنـها بموتـها قتلت فيكم شهامتكم، وكبرياءكم، ورجولتكم.

اختفى الـشابان بعد الجريمـة، فيمـا طأطـأ الحـاج سمور رأسـه، وتساقط الدمع من عينيه، وتابع سيره، وبدأ جمهور المتفـرجين بالتفرق، وهم يتهامسون على الضحية.

قال أحدهم للآخر:

- يبدو أنها عاهرة. جنس النساء لا ينفع معه سوى القوه حتـى ترتدع البقية. إلى جهنم.

فيما همس آخر:

- حـرام والله حـرام؛ الـدين لـم يـأمر بالقتـل. لا إلــه إلا الله. الله يساعد أمها.

الحـاج سـمور شـعر بإهانـة لـم يـشعرها مـن قبـل؛ لأول مـرة لا يستطيع إجارة أحد، أو حماية أحد طلب منه الحماية. هل يتصل بأولاده فيحوّلهـا إلـى معركـة تهتـز لهـا الخليـل؟ لكن مـا الفائـدة؟ فالـضحية ماتـت، والمجرمـان سـيدخلان الـسجن قريبًـا، فهـل يضيف جريمة أخرى يرتكبها أولاده؟

كان يسأل نفسه: لماذا لم أدافع عنها في حينـه؟ لمـاذا لـم أشتبك معهما؟ لكن كيف وأنا رجل عجوز، لا حول له ولا قوة.

تابع سيره. اقترب منه بعض المارة. شدّوا من أزره.

- الحمد لله على سلامتك.

- لقد قمت بواجبك وزيادة.

هز رأسه، ولم يلتفت لأحد.

اقترب منه شاب صغير السن يبدو أنه طالب مدرسة. كان محمرّ الوجه مرعوبًا من هول المنظر، وكان يبكي بصمت.

- عمي الحاج سمور، أقسم لك إنها بريئة من كل اتهام.

نظر إليه الحاج سمور وسأله: هل أنت أخوها؟

- لا.

- من أنت، ولماذا تدافع عنها؟

- أنا الذي اتهموها به.

بحلق به الحاج سمور، وسأله:

- ما اسمك؟

- اسمي عصام محمد الـ...

- أنت أبوك بياع الخضار؟

- نعم هو نفسه.

- وماذا حصل بالضبط؟

- لا شيء، مجرد رسائل تبادلناها عبر الشبكة العنكبوتية للتعارف كطلاب مدرسة في الخليل. لم نلتق بأي مكان. كنت أراها في الشارع عائدة من المدرسة، وكنت أود الحديث مع والدي ليخطبها لي. هذا كل ما في الأمر.

- وكيف عرفت أنها قتلت لهذا السبب؟
- هي التي قالت لي قبل وفاتها رحمها الله. أرسلت لي رسالة عن طريق صديقتها. قالت لي: إن أخاها قرأ رسائلها، ومنعها من الخروج من البيت، وإنها خائفة، وتشعر أن شيئًا يُعد لها.
- ولماذا يا ابني تراسلها؟ لماذا اقتحام أسرار الناس؟
- يا عمي الحاج لم نرتكب جريمة، ولم نزنِ. لم نخالف شرع الله. كيف سيتزوج الأبناء إذا منعناهم من التعارف وتبادل الآراء؟ وحتى لو أذنبت، فهل هذا يستوجب إزهاق روح بريئة؟
هز الحاج سمور رأسه.
- هذا ما حصل، فماذا ترى؟
- أشعر بالذنب.. أشعر بأنني سبب جريمة لم أرتكبها. لماذا لم يردّوا عليك؟ لماذا ضربوا بعرض الحائط حمايتك لها؟
- لأن جيل الأبناء لم يعد يحترم قوانين الآباء. كنا في الماضي إذا قال أحدهم أنا أستجير بفلان، نقف حتى يأتي الذي أجاره؛ فإما أن يقطع استجارته له، أو أن يدفع عن الذي أجاره أية مشاكل عالقة.
صمت، ثم قال للشاب:
- اذهب يا بني إلى بيتك فلا نستطيع عمل شيء. استغفر الله العظيم، وادع لها بالرحمة.
تابع الحاج سمور سيره إلى بيته، بينما علت صفارة سيارة الإسعاف، وسيارات الشرطة التي ملأت المكان.

في اليوم التالي خرج الحاج سمور من الحمام وقد حلق ذقنه وشواربه. فوجئت زوجته، وسألته:

- لماذا حلقت شواربك وذقنك؟ لم تفعلها منذ أربعين سنة كأنك تنوي على شيء.

- ضحك وقال لها:

- ليس لنا أفضل منك يا أم البنين. لقد حلقت شاربي لأنني أشعر أنني لم أعد أعيش في زمني! ما حصل بالأمس أشعرني بالعجز. نحن لسنا رجالاً.. نحن لا نختلف عنكن إلا بملابسنا وأعضائنا التناسلية.

حاولت أن تهدئ أعصابه، فقالت له:

- لا تزعل، سأعمل لك كأسًا من الشاي لنشربها معًا.

رن جرس الهاتف. نظر إلى رقم المتصل، فعرف أنه الحاج عطا من لجنة الإصلاح، فقال لها:

- ردي عليه وقولي له: إنني تعبان، ولن أشارك بأية لجنة بعد اليوم.

(تشرين أول ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

الخائن

انفجرت العبوة في الطريق المؤدية إلى مستوطنة (بسجات زئيف) القريبة من القدس عندما مرت سيارة جيب عسكرية إسرائيلية، فأدت إلى مقتل أحد الجنود وجرح آخر.

بعد ساعات كان الجيش قد اعتقل الخلية التي أعدت العبوة حتى قبل الإعلان عن الانفجار عبر الإذاعة.

استغرب الفدائيون المعتقلون وعددهم أربعة سرعة اعتقالهم دون أية دلائل تشير إلى تورطهم، وأكثر ما أثار دهشة كل منهم اعتقالهم جميعًا في اللحظة نفسها.

بعد شهور من المحاكمة، صدرت الأحكام ضد أحدهم بالسجن المؤبد، فيما حُكم الثاني بالسجن عشرين سنة، والثالث خمس عشرة سنة، أما الرابع فقد صدر عليه حكم بالسجن مدة عشر سنوات فجن جنونه، ولم يصدّق أنه سيتعرض للسجن. كان يصرخ في السجن:

- لماذا سجنتموني؟ لقد نفذت الأوامر. أنا لست مخربًا. أنا لم أفعل شيئًا.

كان يهذي كالمجانين. دخل عليه أحد المحققين الزنزانة التي أُودع فيها بعيدًا عن رفاقه الذين عرفوا لاحقًا أنه وشى بهم، وقال له:

- هذا جزاء عدم تنفيذك للأوامر.

- كيف؟ ألم أسافر حسب توجيهاتكم؟ ألم أحضر لكم أسماء الخلية؟ لماذا لم تعتقلوهم منذ اليوم الأول؟

- كنا ننتظر تورطهم، لكنك قدّمت لنا موعد تنفيذ العملية غير صحيح.
- ما ذنبي؟ هذا ما اتفقنا عليه، لكن المسؤول عن زرع العبوة غيّر الموعد على عاتقه. لماذا تحاكموني؟
- على كل حال هناك مخرج لك إن أحببت.
- ما هو؟
- أن تهاجر إلى أمريكا.
- إلى أمريكا؟ كيف؟
- سنصدر لك وثيقة سفر، وتأشيرة، ونوصلك المطار...
صمت المحقق قليلاً، ثم قال له:
- لكن بشرط.
- ما هو؟
- ألا تعود إلى هنا أبدًا. هجرة نهائية. لماذا تعود فقد يقتلونك.
فكر في الاقتراح، ثم قال للمحقق:
- موافق بشرط...
- لا تشترط علينا، لكن ما طلباتك؟
- أن أزور أهلي قبل السفر.
- لمدة ساعة.
- موافق.
وصلت سيارة إسرائيلية مدنية للمخابرات الإسرائيلية إلى منطقة شعفاط تحمل غريبًا وثلاثة أفراد من الموساد بلباس

مدني، وسلاحهم تحت معاطفهم. كان الوقت ليلاً، حوالي الثامنة مساء.

نزل من السيارة غريب، وتوجه إلى بيت أهله. رنَّ جرس الباب في الطابق الثاني. فتحت أمه الباب. فوجئت به:

- غريب؟! ابني، متى أفرجوا عنك؟

وهجمت عليه تعانقه. قبّل يديها، ثم دخل معها البيت. اجتمع حوله إخوته وأخواته يعانقونه. سمع الأب الضجة، فخفض صوت التلفاز وسأل:

- ما هنالك؟

فقالت له ابنته الصغرى:

- غريب هنا.

- غريب؟ كيف؟ لقد حكموه عشر سنوات.

هب من مكانه، فالتقى وجهًا لوجه مع غريب الذي جاء ليسلم عليه.

- ابني حبيبي؟ متى خرجت؟

جلس غريب، والجميع حوله، وقال لأبيه.

- لقد عرضوا عليَّ الهجرة وعدم العودة مقابل عدم تنفيذ مدة الحكم فوافقت.

- لم أفهم.

- سيرحلونني إلى أمريكا على ألا أعود.

- بهذه السرعة؟!

- بهذه الطريقة لن أقضي مدة الحكم. إنـها عشر سنوات.
- وهل عرضوا على زملائك الشيء نفسه؟
صمت غريب، ثم قال:
- لا أعرف.
فقال له أبوه:
- وكيف حضرت إلى هنا؟
- لقد أحضروني لأسلم عليكم وأودعكم.
- من الذي أحضرك؟
- الشرطة.
- الشرطة أحضروك بأنفسهم؟
تغير وجه أبيه.
فقالت أمه:
- وهل ستتركنا إلى الأبد؟
قبل أن يجيبها قال له أبوه:
- غريب؟ هل أنت جاسوس لهم؟
احمرَّ وجهه. قال:
- جا.. سو.. س؟ لا لا. ما هذا الاتهام يا والدي؟
فقالت أمه:
- ابني جاسوس؟ بعيد الشر. إنه أشرف الناس.
هب أبوه واقفًا، وقال له:
- هل خنت إخوتك في السجن؟

- لا لم أخن أحدًا.
- فلماذا إذًا سيرحلونك إلى أمريكا، وأحضروك لتسلم علينا كأنك في نزهه.
- لا لا. لقد أحضروني حتى لا أهرب...
- تهرب؟ إنهم لم يسمحوا للأهالي بزيارة أبنائهم إلا خلف القضبان. لماذا أحضروك بأنفسهم؟
غريب. أنت ستهاجر إلى أمريكا لقاء خيانتك. خسارة أن تكون ابني. لكن الحمد لله أنك جئت الآن قبل أن ترحل لكي أبصق في وجهك للمرة الأخيرة.
تفوه عليك... هيا اخرج، ولا ترني وجهك.، قبحك الله.
هبَّ غريب، وخرج من البيت مسرعًا دون أن يسلم على أحد، وقبل أن يصل السيارة مسح البصاق عن وجهه.
بعد أن فتح باب السيارة سأله أحدهم:
- أراك عدت بسرعة! يبدو أنهم طردوك؟!
لم يرد.
فقال له الثاني:
- لا تقلق سيزعل منك أبوك لفترة، ثم سيتقبل الموضوع فأنت ابنه.
أما الثالث فقال له:
- غدًا ستكون في أمريكا مع الشقراوات والحسناوات، وهناك بعد سنوات ستكون مليونيرًا يتمنى كل إخوتك أن يلحقوا بك.

هزّ رأسه مبتسمًا يحاول أن يخفي دمعته، فقد كانت كلمات أمه الأخيرة تدور في رأسه.

ـ غريب جاسوس؟!

كنت سأرفع رأسي أمام الناس، فإذا بك تكسر ظهري وتحنيه عارًا إلى الأبد.

وضع يده يتحسس مؤخرة رأسه الذي يؤلمه بعد أن ضربه أخوه بحذائه عندما استدار خارجًا.

بدأ شارد البال يتمتم كلامًا غير مفهوم.

سأله أحد رجال المخابرات:

ـ ماذا تتمتم؟

ـ أفكر باللحظة التي سأصل بها الولايات المتحدة، لأبدأ حياة جديدة في وطن جديد.

❖ ❖ ❖

الرسالة السِّرية

أمضى ناصر ليلة الخميس وهو ينسخ بخط يده رسالة سرية لإرسالها صباح الجمعة إلى خارج سجن بئر السبع، تشرح للمسؤولين ظروف السجن، وأوضاعه الاعتقالية المتردية، واعتداءات الإدارة المتكررة على الأسرى المنقولين إلى سجون أخرى، واعتزام الأسرى الإضراب عن الطعام لإجبار الإدارة على التسليم بمطالبهم، وقد تضمنت الرسالة البيان الاعتقالي الأول الصادر عن لجنة الأسرى، وساعة الصفر، وأسماء لجنة قيادة الإضراب.

كانت الرسالة مهمة جدًّا، لذا كان عليه أن ينسخها بشكل متأن وبخط صغير حتى يستطيع تهريبها.

مهمة تبادل الرسائل لم تكن سهلة؛ فهي تخضع لعملية معقدة من النسخ واللف والنقل والتهريب، يبذل فيها الأسرى حرصًا أمنيًّا زائدًا حتى لا تقع في أيدي إدارة السجن، لأنها تكشف خططهم وتعرّضهم للخطر.

نسخ الرسالة السرية لا يتم على ورق عادي بل يستخدم الأسرى ورق السجاير الذي يستخدم للف السجاير غير الجاهزة، وهو عادة ورق شفاف صغير، في تلك الأيام كان من نوع(أوتمان) حيث كان يجري تهريبه إلى داخل السجن بالطريقة نفسها. وكي يكون الخط صغيرًا وواضحًا، فإن على ناصر أن يضع قطعة بلاستيك ناعمة مثل الزجاج أسفل الورقة،

أما النسخ فعادة يبدأ مساءً بعد أن تقوم الإدارة بعد السجناء للمرة الأخيرة، وذلك كي يتأكد الأسرى المكلفون بذلك أن حركة السجان قد تدنت، وأصبح بالإمكان النسخ ببعض الراحة.
الضوء خافت، والنسخ ليلاً على قطعة بلاستيك ليس مريحًا؛ فلا يوجد طاولات في السجن في تلك الأيام ولا كراسي. خلال النسخ يكون بعض الأسرى المكلفين بالأمن في حالة استنفار؛ يراقبون حركة السجان، ويعلنون حالة الخطر إذا شعروا أن إدارة السجن ستقتحم السجن للتفتيش المفاجئ، حينها يجب إتلاف الورقة ببلعها بما فيها.
ساعتان كاملتان من النسخ. شعر ناصر أن عينيه قد خرجتا من رأسه، فقد تعب من النسخ بخط صغير وعلى ضوء خافت. قرأ الرسالة مرة أخرى ليتأكد أنها سليمة. كان عدد الأوراق عشرة أوراق. عليه الآن لفّها ليسهل تهربيها. بخبرته الطويلة؛ لف الأوراق بشكل جيد مثل كبسولة الدواء، لكنها كبسولة كبيرة الحجم. كان الله بعون مَن يبلعها ليهربها! بعد ذلك لفها بقطعة بلاستيك من أكياس البلاستيك التي يكون السكر معبأً بها عند شرائه من محل السجن، وبنار السيجارة المشتعلة، يعمل بحركة فنية على لصق الرسالة من جميع الأطراف حتى يتماسك البلاستيك، ويتحد ليشكل قطعة واحدة، لا يكون للماء منفذًا إلى داخلها. هذه مهمة ليست سهلة، ولا يجيد كل شخص القيام بذلك؟

انتهى من كل شيء. الرسالة الآن جاهزة. في حالة الخطر يتم بلعها بسرعة، وعلى الأسير المكلف بحملها أن يكون خفيف الحركة سريعًا في البلع بدون ماء؛ لأن السجانين لهم خبرة أيضًا في عملية إلقاء القبض على الرسائل. إنه عارٌ على الأسير إن قبضوا على رسالة في جيبه؛ سيشعر بالخزي، وسيكون مثار تعليقات وإدانات حتى وإن صدرت تبرئته من تهمة تسليمها، لذلك يكون حامل الرسالة في حالة استنفار، وجاهزًا لكل الاحتمالات بما فيها التعارك مع السجان.

يوم الجمعة صباحًا، يستعد الأسرى للزيارة، وهي مرة كل أسبوعين، مدتها نصف ساعة فقط، ما إن يسلم الأسير على زواره وبعض زوار رفاق دربه، ويقدم بعض حبات الملبس إلى بعض الأطفال والكبار أيضًا حتى يكون وقت الزيارة قد انتهى. الوقت ضيق، يكاد يسمح بتبادل بعض الأخبار السريعة وليس كلها. في هذا اليوم يكون الأسرى قد هيأوا أنفسهم؛ حلقوا ذقونهم، واستحموا صباحًا، وبدؤوا ينتظرون موعد زيارة الفوج الأول كأنهم في عرس حقيقي.

الزيارة للأسير في قمة الأولويات، لأنها قليلة أولاً، ولأنها وسيلة الاتصال شبه الوحيدة مع العالم الخارجي، وكانت الرسائل شحيحة جدًّا، وحسب أنموذج معدّ من إدارة السجن على صفحة واحدة فقط، عائلية عادة، وإلا فلن تصل الأسير.

لذلك كان الأسرى الذين لا أحد يزورهم بسبب وجود أهلهم وأقاربهم خارج السجن يشعرون أنهم معزولون عن العالم، وأنهم يدفعون ثمن نضالهم ضعفًا مضاعفًا عن الأسرى الآخرين.

نودِي على اسم ناصر. سيكون في الفوج الأول. دائمًا يكون أهله في الفوج الأول رغم أنهم يصلون معًا في الحافلات نفسها، ولكنهم يحرصون على الحضور مبكرًا إلى موقف الحافلات التي ستقلّهم إلى سجن بئر السبع، وعادة تكون بإشراف الهلال الأحمر، أو الصليب الأحمر، فيحتلون المقعد الأمامي، وما أن تصل الحافلة إلى بوابة السجن يكونون أول النازلين لتسجيل أسمائهم كزوار.

هذه المرة ستزوره أمه وزوجته وابنه عمار ابن الثلاث سنوات. فرصة لرؤية زوجته فهو لم يرها منذ شهرين لأن أصدقاء وأقارب آخرين كانوا يتبادلون زيارته، فلا يسمح بزيارة الأسير إلا من قبل ثلاثة أشخاص فقط.

كل فوج حوالي عشرين أسيرًا، ولكن من الجهة المقابلة من خمسين إلى ستين شخصًا، لذلك تكون قاعة الزيارة صاخبة، والأصوات عالية، والكل يرفع صوته ليسمعه الآخرون.

خرج ناصر يحمل الرسالة السرية التي نسخها بعد أن تم تكليفه بتهريبها إلى الخارج، وبعض الأسرى من القسم الذي ينزل

فيه، والتقى في الغرفة التي تسبق الزيارة بأسرى آخرين من الأقسام الأخرى فتعانقوا معًا. إنها فرصتهم الوحيدة للالتقاء؛ فإدارة السجن لا تسمح للأسرى بالتنقل بين الأقسام ولا بالزيارات. أسلوبها المعروف في إذلال الأسرى، وتحويل فترة أسرهم إلى فترة انتقام منظم.

بدأ السجان ينادي واحدًا واحدًا، ويقوم بتفتيشه قبل دخوله غرفة الزيارة. هنا الامتحان الصعب؛ عليه أن يكون حذرًا في تهريب الرسالة من السجان. كان يريد وضعها في فمه تحت لسانه، ولكنه خاف أن يطلب منه السجان فتح فمه كما يفعل أحيانًا، فيضطر إلى بلعها، وهو لا يريد بلعها، لأن المهم الآن توصيلها، لذلك وضعها في سرواله الداخليّ الضيق الذي لبسه خصيصًا، وقد حاول وضعها تحت القضيب مباشرة. كان يدعو الله أن تمر الساعة بسلام. قال للأسرى الذين معه إنه سيكون وسطهم، ليس الأول وليس الأخير، وإنه يريد انتباههم، فأحيانًا تحصل مشادات وعراك في تلك الحالة.

مرَّ الأسير الأول. أشار لهم بيده من بعيد إلى أن كل شيء على ما يرام. عندما جاء دوره فتش السجان جيوبه. نظر، فإذا بها بعض حبات الملبس ليقدمها إلى زواره. ما أجمل أن يشعر الأسير أنه يقدّم شيئًا لزواره. لا يكفي أنه قدّم سنوات عمره لشعبه وأهله، بل يريد أن يقدم لهم حبات الملبس؛ إنه الشعور الدائم لديه بالعطاء، لكأن العطاء والتضحية سعادته الحقيقية،

أما الأسير فلا يسمح له باستقبال أي شيء من الأهل، والملبس كان الشيء الوحيد الذي يسمح له بشرائه لتقديمه لزواره من بين الشبك الحديدي الفاصل بينهم، والذي يكاد يسمح بإصبع اليد للدخول منه لتتشابك مع أيدي الزوار. هكذا يتعانق الأحبة؛ بتشابك الأصابع، وتبادل القبلات على شفاه يحجب الشبك الحديدي نصفها، فتمتزج شفتا الأسير مع شفتي محبوبته والحديد بينهما، فيكون لتلك القبلة طعمها الحديدي الخاص الذي لا يعرفه سوى الأسرى.

بعضهن يجهدن في تصغير شفاههن لإدخالها من الفتحة الصغيرة في شبك الحديد لتلتقي مع حبيب العمر خلف القضبان، ولكن من أين لجميعهن تلك الشفاه الرفيعة والرقيقة، ومن منهن تقدم على ذلك أمام هذا الحشد من الناس؟ فالكثيرات يخجلن من ذلك؛ يخجلن أن يقال إنهن عاشقات، مع أنهن في قرارات أنفسهن يتمنين ذلك. كل واحدة منهن تتمنى لو أن الجميع يغمض عينيه في تلك الفترة، فلا أحد يرى ما يجري من تبادل القبلات ما بين جانبي الشبك الحديدي. إنها قبلات الأسرى لأحبتهم.. إنها تبادل الأشواق وتجديد البيعة.. إنها دعوة إلى الصمود.. إنها غذاء روحي وجسماني ضروري للتواصل.

استمر السجان في تفتيش جيوبه. طلب منه أن يبعد رجليه عن بعضهما. مد يده يتفقد أعلى الفخذين. كادت يده تصل مكان الرسالة، ولكنه على ما يبدو تحاشى لمس القضيب. لو أن كل

سجين ذاهب إلى الزيارة سيقوم السجان بتحسس قضيبه فهي كارثة للسجان الذي يتحاشاها أحيانًا حتى لو كانت الأوامر كذلك. انتهى دور ناصر. أشار إليه السجان بيده أن يدخل. تنهد تنهيدة طويلة. دخل الغرفة. كان السجناء الذين سبقوه قد أخذ كل منهم مكانه. لم يكن أحد من الزوار قد دخل بعد، لذلك لم يكن أحد من السجانين قد أخذ موقعه وراءهم، فأدخل يده في بنطلونه بحركة سريعة، وأخرج الرسالة، ووضعها في فمه. لا وقت للتفكير؛ المهمة خطيرة. اكتمل عدد السجناء، وفجأة فتح الباب، ودخل الزوار من الاتجاه الآخر للباب الحديدي. كان كل شخص وكل عائلة تبحث عن أسيرها، كأنه يوم الحساب، وكل يبحث عن أهله. بدأت الأصابع تتشابك، والسلامات والتحيات وتبادل كلمات الشوق والفرح. كانت زوجته سعاد مع أمه وابنه الصغير. قدّم له حبات الملبس، وقالت له زوجته:

- معي لك رسالة.

- يا إلهي.. وأنا أحمل واحدة لك. يجب الانتباه الآن بحذر.

نظر خلفها، فرأى السجان يراقب حركاتهما. قال لها:

- حسنا اتركي الموضوع الآن حتى نرى الفرصة المناسبة.

بدأ يسأل عن الأهل والأقارب وأخبار والده، واستدار إلى أمه يبث لها شوقه، ثم إلى ابنه يداعبه. سأله ابنه:

- متى ستعود يا بابا؟

- قريبًا.. قريبًا جدًّا سأكون معك.

فجأة تحرك السجان من خلفها إلى مكان آخر. سألها:

- هل يوجد خلفي سجان؟

أجابت:

- لا يوجد أحد.

فقال لها:

- هاتي الرسالة بسرعة؟ ادفعيها من الشبك من أسفل نقطة.

كان الشبك يبدأ فوق مستوى الأرض بمتر تقريبًا، والأسفل كله اسمنت مسلح، وكانت يفصل بينه وبين الحائط بلاط من الرخام من الجهتين بمسافة قدم من كل جانب.

أدخلت الرسالة بسرعة. أخذها بيده، ووضعها في فمه، وحتى لا يحدث أي خطأ في الرسالتين، فقد بلع الرسالة التي أحضرتها زوجته، أما رسالته، فقد انتظر حتى اللحظات الأخيرة عندما أعلن السجانون انتهاء الزيارة، ووقف جميع الأسرى والأهالي يسلمون على أقاربهم بأصابعهم المتحدة من بين قضبان الحديد. مد أصابعه من الأسفل يسلّم على أمه وابنه، ويقدّم آخر قطعة ملبس لديه، بينما كان فمه من الأعلى يطبع قبلة صغيرة ممزوجة بقضبان السجن، ويمرر لها الرسالة من بين الشفاه. إنها الرسالة الأهم والقبلات الأرق. ما أجمل أن يمتزج الحب بالنضال! إنه شعور لا يعرفه إلا الذين تشرفوا وقضوا أعمارهم خلف القضبان يدفعون ثمن حرية شعبهم.

سألها:

- هل وصلت القبلة؟
قالت بارتياح:
- وصلت، وكان طعمها لذيذًا.
- لا تنسي أن عليك إيصالها اليوم.
سلّم عليها وعلى الجميع مرة أخرى، وسلّم على الأهالي الآخرين القريبين منه، فعادة الأهالي التعرف إلى الأسرى الآخرين.
عاد إلى الغرفة الداخلية ليخضع للتفتيش من جديد. كانت مفاجئة له أن السجانين هذه المرة، طالبوه بفتح فمه. فتشوه بدقة، ودققوا بين رجليه، ثم أعادوا الفوج الأول إلى أقسامهم ليدخِلوا الفوج الثاني الذي كان ينتظر.
وصل ناصر إلى القسم. مرَّ على مسؤول لجنة الإضراب وهو في الطريق إلى غرفته. سلّم عليه، وهمس له:
- وصلت الرسالة، ومعي رسالة جديدة.
سأله:
- أين هي؟
- بلعتها، وسأحاول إخراجها الآن. لن أنتظر ليوم غد لتنزل بالبراز.
ذهب إلى الغرفة، وبعد أن فتح له السجان الباب بحركة سريعة تعلمها، وضع إصبعه في حلقه، فأخرج ما بجوفه، وكانت الرسالة هي المطلوبة.

غسلها، ثم غسل يديه، ونادى على عامل المردوان من الأسرى الذي يعمل على تقديم الماء الساخن للشاي، وينقل الرسائل والتوجيهات بين الأسرى بخفية عن السجان. اقترب عامل المردوان. نظر إليه، فقال له ناصر بنظرة يعرفها عامل المردوان.

- هل الماء ساخن؟

فهم عامل المردوان قصده. نظر إلى السجان البعيد عنه، فرآه ينظر للاتجاه الآخر، فقال له:

- هاتها بسرعة.

فمدّ له ناصر الرسالة. حملها مع كأس الشاي، وقال لناصر:

- سأعود لك بالماء الساخن.

في الطريق إلى مكان الماء الساخن مرّ على غرفة المسؤول. سألهم:

- هل تريدون ماء ساخنًا؟ وحرك يده فورًا.

وقف أحد الأسرى، واستلم الرسالة منه، وقدمها إلى المسؤول الذي كان جالسًا على سريره.

(تموز ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

السلة يا أستاذ

كان فؤاد تلميذًا مجتهدًا، ترتيبه الأول دائمًا، ولكنه اضطر إلى ترك المدرسة وهو في الثانية عشرة للتحول إلى سوق العمل قبل أن تجف دموعه على والده الذي توفي فجأة وهو في ريعان شبابه، ليساعد أمه على توفير لقمة العيش، بعد أن سدّت أمامها كل الطرق، وتخلى عنها الأقارب ماليًّا، ونصحها أهلها بالتخلي عن ابنها والزواج من رجل آخر، لكنها أصرّت أن تواجه مع ابنها كل مصاعب الحياة.

حَملته أمه سلّة، كانت تُربط على الكتفين وتوضع على الظهر، يدور فيها في شوارع البلدة القديمة في القدس المكتظة بالباعة والمحلات والناس، فيعرض خدمته على من يحملون حاجياتهم لنقلها إلى بيوتهم داخل البلدة القديمة، أو إلى محطة الحافلات والسيارات في باب العمود، فشوارع البلدة القديمة وأسواقها للمشاة فقط.

كان معظم زبائنه من كبار السن، خصوصًا السيدات.

في الأيام الأولى لحمله السلة كان خجولاً، يرضى بأي شيء يقدم إليه، ولكنه بعد فترة، أصبح خبيرًا في عمله يعرف أين يجد زبائنه، وكيف يفرض أسعاره التي كانت تتراوح بين قرش واحد، إلى ثلاثة قروش.

كانت السيدات يرتحن له أكثر من زملائه الكبار الذين كانت نظراتهم إلى النساء تزعجهن كثيرًا.

لم يترك زقاقًا إلا ودخله، ولم يترك شارعًا لم يجرب حظه فيه، فمن باب الخليل إلى سويقه علون، إلى سوق البازار، إلى باب السلسلة، فسوق اللحامين، وسوق الخواجات، وسوق العطارين، وشارع الواد، وباب خان الزيت، وطريق الآلام.

كان يسير كل يوم رافعًا صوته عاليًا:

- السلة، اللي عاوز السلة.

كل أصحاب محلات البلدة القديمة أصبحوا يعرفونه، حتى أن بعضهم كان ينتظره لينقل أغراض زبائنهم إلى باب العامود على حساب المحل، كانوا يلقبونه بـ (أبو علي) نسبة إلى والده المتوفى (علي) الذي كان تذكّره كفيلاً بأن يسيل دموعه.

كان عندما يحمل حاجات أحد الزبائن، يحاول إيصالها إلى المكان المحدد بسرعة، ليعود إلى السوق من جديد، وكان ماهرًا في ذلك، فرغم ازدحام الشوارع بالمارة وصعوبة السير بسرعة، فقد كان يجتهد في تجاوز الجميع. كان يصيح بأعلى صوته باستمرار طالبًا من المارة إفساح الطريق له:

- (إوعى) احذر ظهرك، طريق للسلة.

- إوعى رأسك.. إوعى رجلك...

- دير بالك يا ماشي سلة أبو علي.

وعندما ينظر الناس إلى الخلف فيجدون سلته محملة بالأكياس التي لا تتلاءم وسِنّه، فيشفقون عليه، ويعجبون لذكائه وخفة حركته، ويتساءلون كيف يتركه أهله يعمل في هذا السن المبكر وفي وقت المدرسة؟!

في إحدى المرات اتّفق مع سيدة مسنّة على حمل أغراضها إلى موقف حافلات وادي الجوز قرب باب العمود، وعندما وصل مدخل باب العمود أوقفته المرأة لأنها تريد شراء بعض الخيار من إحدى الفلاحات التي كانت تعرض بضاعتها للمارة عند المدخل. حملت المرأة كيس الخيار ووضعته في السلة، ثم أخرجت محفظتها لتدفع إلى الفلاحة ثمنه، وما أن فتحت المحفظة حتى هجم عليها لص كان يراقبها من بعيد، خطف المحفظة بسرعة وفرّ هاربًا باتجاه البلدة القديمة، وقبل أن يتمكن أحد من المارة من إلقاء القبض عليه، كان قد اختفى من المكان، وبدأت المرأة تصرخ: حرامي حرامي...

ألقى فؤاد السلة عن ظهره بحركة سريعة، ولحق بالحرامي مسرعًا كأنه يعرف طريقه، وعند مدخل جامع الشيخ لولو انحرف مسرعًا إلى اليسار، وصعد الدرج باتجاه حارة السعدية بسرعة عدّاء ماهر، فيما المرأة تبكي حظها. تنتظر عودته سالمًا. جرّت السلة الثقيلة إلى جانب الشارع، ووقفت قرب بائعة الخيار تنتظر الفرج.

ترى هل سيعود صاحب السلة؟ أم سيتقاسم النقود مع اللص الكبير؟ لا أصدّق. سيضربه اللص بالتأكيد، أو سيشتري سكوته ببعض القروش.

وبينما هي في سرحانها، عاد فؤاد حاملاً المحفظة.

- تفضلي يا خالة، هذه محفظتك.

لم تصدق المرأة ما سمعت ورأت.
- كيف استطعت إعادة المحفظة من اللص المجرم؟ ألم يضربك؟
قال لها متباهيًا:
- لا تخافي، أنا أبو علي.
وأخرج لها من جيبه موسًا يحمله في حالات الطوارئ.
- يا إلهي. أنت صغير على هذه الأمور. ما اسمك؟
- اسمي فؤاد، وينادوني بـ أبو علي.
ضحكت المرأة، وبعد أن دفعت ثمن الخيار ساعدته على حمل السلة، بعد أن شكرته، وسار خلفها باتجاه موقف باصات وادي الجوز حالمًا بمكافأة مالية لمساعدته لها في استعادة المحفظة.
وصل فؤاد الموقف، وبعد أن ساعدها في إنزال الأكياس إلى الباص، كان متلهفًا لقبض الأجرة والمكافأة. قبل أن تفتح المحفظة سألته:
- يا فؤاد، لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟
- لكي أساعد أمي في لقمة العيش، فقد توفي أبي منذ عامين، ولم يترك لنا شيئًا.
أحست المرأة بحزن عليه، ثم سألته مرة أخرى:
- هل تحب المدرسة؟
قبل أن يجيبها، لمح من بعيد امرأة أخرى تحمل بعض الأكياس وتسير باتجاه باب الساهرة، قال في نفسه: لا بد إنها تريد (سلة) لأنها تسير ببطء من ثقل الأكياس.

قال للمرأة الأولى:
- عندي طلب جديد، هل لكِ أن تدفعي الحساب؟
- لم تجبني يا فؤاد، هل تحب المدرسة؟
قال لها وعينه على المرأة البعيدة يخشى أن تضيع منه:
- طبعًا، كنت دائمًا الأول في الصف.
فوجئت المرأة بجوابه.
- الأول؟! وتترك المدرسة؟ هذا حرام يا فؤاد.
خاف فؤاد أن تضيع المرأة البعيدة من يده، فأشار إليها من بعيد. انتبهت لحركة يده، وتوقفت تنتظره. قال في سره:
- لعل هذه المرأة تكثر من أسئلتها لتهرب من دفع المكافأة. هؤلاء السيدات أعرفهن جيدًا، وأعرف كيف يفكرن، يبخلن علينا في الدفع، ويصرفن كل فلوسهن على العطور، وأدوات التجميل. رد عليها بسرعة:
- شكرًا يا ست. عندي زبونة بانتظاري. أرجوكِ لا تقطعي رزقي. أنا صاحب عائلة...
أخرجت النقود من يدها. كان كل ما فيها نقود ورقية، لا يوجد قروش.
- ها ها إذًا تريد أن تقول لي لا يوجد معها فكة، وتريد أن تضيع الوقت في البحث عن قرش هنا وتعريفة هناك، اللهم طولك يا روح.
قالت له:

- ما رأيك بمكافأة العمر؟!

- ماذا تقصدين؟

- أن أعيدك إلى المدرسة.

ضحك مستهزئًا. طالما تمنى العودة إلى المدرسة، ولكن من يصرف عليه وعلى أمه؟ من سيطعمه؟ من سيشتري له الملابس والكتب. لطالما تحسر وبكى كلما شاهد الأولاد عائدين بعد الظهر إلى بيوتهم، خصوصًا أصدقاءه الذين يشاهدونه حاملاً السلة يدور فيها في الشوارع، فيخجل منهم، ويهرب إلى الشارع الآخر.

قال لها بصوت حزين:

- ومن سيطعمنا يا خالة؟ لا تتأخري علي أرجوك!

- وما رأيك لو وجدت لك عملاً بعد المدرسة؟

نظر إليها باهتمام، وسألها:

- أين سأعمل، وكم ستدفعين؟

- سأجد لك وظيفة عندي، فأنا مديرة مدرسة دار الفتاة اللاجئة. ستساعد العاملة المسؤولة عن التنظيفات بعد فترة الدوام المدرسي، وسأعطيك كل يوم عمل نصف دينار.

- نصف دينار؟!

هجم فؤاد على يديها يقبّلها، فيما جذبته هي إليها وأسندت رأسه على صدرها، تستعيد فيه صورة ابنها عندما كان في سنه، فيما كان فؤاد يذرف دموع الفرح ودموع الحزن معًا؛ الفرح لأنه

سيعود إلى المدرسة، والحزن على والده الذي حرم من عطفه وحنانه إلى الأبد.
بعد لحظة عواطف صادقة، نظرت في وجهه، ومسحت دموعه، ثم قالت له:
- والآن أريدك غدًا صباحًا الحضور أنت وأمك عندي. سأجري اتصالاتي الخاصة لإعادتك إلى أقرب مدرسة إلى مكان سكنك، وبعد الدوام المدرسي تأتي إلى دار الفتاة لتباشر عملك.
شكرها فؤاد، وقبل أن يدير ظهره لينصرف وضعت في يده الأجرة وأغلقت يده عليها.
- لا تفتح يدك إلا في البيت.
وضع فؤاد يده في جيبه وقد أحس بورقة في يده.
- لا بد أنها نصف دينار. أجرة لم أحلم بها. نظر إلى المرأة الثانية، فلم يرها. لا بد أن أحدًا آخر أخذها. الخالق هو الرزاق.
بعد عدة أمتار قال في نفسه: لا بد أن أرى ما وضعته في يدي.
أخرج الورقة من جيبه فإذا بها خمسة دنانير.
- خمسة دنانير؟! ما هذا الرزق الذي أتى من السماء؟ شكرًا لك يا رب، شكرًا يا الله.
وهرول باتجاه البيت في شارع الواد يخبر أمه بهدية السماء.

بعد أيام كان فؤاد في المدرسة. قبله مديرها رغم أن السنة الدراسية في منتصفها. ها هو اليوم على مقاعد الدراسة. سعيد

رغم أنه مع طلاب يصغرونه سنًّا. لم يجد حرجًا من ذلك، فقد علمته السلة كيف يعوض ما فاته.

كان أستاذ الرياضيات يشرح بعض المسائل، ثم استدار إلى الطلاب وسألهم سؤالا للفذلكة وهو مطمئن أن أحدًا لن يجيب عليه:

- ما هو الرقم الذي إذا ضاعفناه ست مرات أصبح لدينا مئة؟

حاول كل طالب حل المسألة على الورق، وقبل أن يجيبه أحدهم قال فؤاد بسرعة:

- إنه (واحد صحيح وتسعة على ١٦).

بهت الأستاذ، فتقدم نحو فؤاد، وقال له:

- عظيم يا فؤاد. كيف عرفت دون استخدام الورقة والقلم؟ من علمك؟

أجابه فؤاد دون تفكير:

- السلة يا أستاذ.

فضحك جميع الطلاب ومعهم الأستاذ.

(حزيران ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

المُطارَد

كان يعرف أنه مطلوب للسلطات الإسرائيلية عندما دهمت قوة من حرس الحدود بيت أهله لتعتقله ولم تجده في البيت. اختفى عن الأنظار، ولم يعد يظهر في الشوارع والحارات كما كان سابقًا.

بعد عام من اختفائه في مدينة أخرى، غيّر فيها شكله ولباسه، وصار يخرج أحيانًا إلى السوق لشراء بعض حاجياته.

وفي أحد الأيام، أثناء عودته إلى مكان سكنه، لاحظ من بعيد سيارة مدنية تحمل رقمًا فلسطينيًّا يجلس فيها بعض الشبان،وقد وضعوا الكوفية الفلسطينية فوق مقود السيارة ليلاحظه الجميع.

كان وجودهم في الشارع يدعو للشبهة في نظره، فقرر تغيير مكان سيره، وانحنى إلى الزقاق المتفرّع يمينًا، ولكن ما إن شعر الجالسون بالسيارة أنه غيّر من اتجاه سيره حتى خرجوا من سيارتهم بسرعة، ولحقوا به مشهرين مسدساتهم.

هرب فور دخوله الزقاق، وكان يركض بسرعة جنونية وهو يطاردونه. فرقة الموت الإسرائيلية المكلفة بتصفية بعض أبطال الانتفاضة تلاحقه؛ جاء دوره إذًا! كيف عرفوا مكانه؟

كان يجري يمينًا وشمالاً وفي كل اتجاه. فجأة فتح باب إحدى العمارات القديمة ودخله، ثم أغلق الباب عليه، واختبأ تحت الدرج. انتبهت عليه امرأة عجوز تسكن في أحد البيوت هناك، فاعتقدت أنه لص. سألته: ماذا تريد؟ وكادت تصرخ، فقال لها:

- دخيلك اليهود يلاحقونني.

سكتت وقالت له:
- حسنًا ادخل هنا. وأدخلته إلى غرفة صغيرة تستخدمها كمخزن للطحين والرز وغير ذلك.
وصل أفراد المجموعة إلى العمارة التي يختبئ بها شاهرين مسدساتهم، وبعد لحظة كانت قوة من الجيش تحاصر المكان.
طلب أحد الجنود من سكان البيوت الموجودة في الزقاق عبر مكبر الصوت الخروج من بيوتهم فورًا، فيما كان الجنود الآخرون يوجّهون بنادقهم نحو شبابيك البيوت وأبوابها، وأسند رجال المجموعة ظهورهم إلى الحائط واستعد كل منهم للهجوم.
خرج السكان مذعورين بما فيهم العجوز التي خرجت تحمل عكازها.
حقق الجنود بسرعة مع الأهالي عن مكان وجوده فلم يسمعوا جوابًا يسرّهم، وأخيرًا هددوا بهدم البيت الذي آوى المطارد.
بعد خروج الأهالي، مسك الميكروفون أحد أفراد المجموعة وقال مخاطبًا من يطاردونه:
- سلّم نفسك تسلم. لا تجبرني على اقتحام البيوت. ننصحك أن تخرج دون قتال. ارفع الراية البيضاء، ولن نطلق عليك الرصاص.
كان يدرك أنه لا مجال للهرب، وأن عدم استسلامه سيؤدي إلى دمار البيت الذي اختبأ فيه، وربما البيوت الأخرى، ولن يخرج حيًّا، لذلك قرر الاستسلام.

خرج من مخبئه يرفع عصا المكنسة الموجودة في مطلع الدرج وعليها قطعة ملابس بيضاء، ثم اقترب من الباب. فتحه بحذر، وظهره إلى الحائط، ثم رفع المكنسة بالقميص الأبيض. شاهده الجنود وأفراد القوة.

قال له قائد المجموعة بمكبر الصوت نفسه:

- تحرك رويدًا رويدًا، وارفع يديك للأعلى.

خرج قاسم رافعًا المكنسة والشارة البيضاء بيده، فيما اليد الأخرى مرفوعة بالهواء.

بعد عدة خطوات طلبوا منه رفع قميصه، ثم خلع بنطلونه للتأكد أنه لا يلف جسده بالمتفجرات. فعل كما طلبوا منه، وبقي في سرواله الداخلي، وعندما شاهدوا أنه عار من أي سلاح هجم عليه أفراد المجموعة وأوقعوه أرضًا، ثم كبّلوا يديه من الخلف.

وجّه قائد فرقة الموت مسدسه صوب رأس المطارد وأطلق عليه النار؛ رصاصةً، اثنتين، ثلاثًا. كان يقول مع كل طلقة بالعبرية:

- عرفي ملخلاخ (عربي وسخ).

تناثر دمه على الأرض وكذلك دماغه، فيما انسحب الجنود مع القوه المهاجمة، دون أن يحملوه معهم، كأنهم أنهوا مهمتهم بسلام.

بعد انسحابهم، عاد الأهالي إلى بيوتهم ليشاهدوا قاسم مرميًّا على الأرض والدماء تسيل من رأسه على الأرض.

- لا إله إلا الله. الله يكسرهم اليهود.

- مسكين قتلوه رغم أنه لا يحمل سلاحًا.

- رغم أنه استسلم، لكنهم غدروه.

- تُرى أين كان مختبئًا؟

- يجب أن نبلّغ أهله. هل يعرف أحد أهله؟

- سأبلّغ الشباب ليقوموا بواجبهم. هيّا بنا نغطي جسده حتى نقلّه من هنا.

- الفاتحة على روح البطل.

اقتربت المرأة العجوز. ذرفت دمعتين، ودخلت إلى البيت، وإلى الغرفة التي اختبأ فيها، فوجدت فيها ساعة يده وبعض الفلوس حملتها. قبّلتها وخبأتها في عبها بانتظار أن يأتي أحد أفراد عائلته ليسألها عنه.

❖ ❖ ❖

انتحار منال

في طريقها إلى المدرسة النظامية في بيت حنينا بالقدس، وبينما كانت منال تسير في الطريق الرئيس من بيتها قرب محلات (جنة عدن)، توقفتْ فجأة سيارة بيضاء اللون بالقرب منها. فتح أحد الجالسين فيها شباك السيارة، وناداها باسمها:

- منال تعالي.

خافت منال، وابتعدت قليلاً عن الرصيف، فقد تعودت أحيانًا على معاكسات بعض الشباب. تجاهلت النداء، ولكن صاحب الصوت لم يستسلم، فناداها للمرة الثانية قائلاً:

- منال تعالي. نحن من المخابرات.

كان يتكلم العربية بطلاقة، كأنه من أبناء القدس العرب.

ازدادت خوفًا، ونظرت إلى السيارة، فرأت أحد رجال المخابرات اليهود يرفع يده من الشباك حاملاً إشارة شرطة، ثم كرر عليها القول:

- نحن مخابرات. تعالي قبل أن نأخذك بالقوة.

نظرت حولها لعل أحدًا ينجدها. لم ينتبه إليها أحد. كان الوضع عاديًّا، والطلبة يسيرون في الاتجاه الآخر من الشارع. احتارت ماذا تفعل؟ توقفت، وسألته:

- ماذا تريد مني؟

- معنا صورة لك تعالي.

- صورة؟ !أي صورة؟

اقتربت قليلاً، وقفت بالقرب من السيارة. أخرج (الكابتن سليمان) كما كان يسمي نفسه، صورة من حقيبته اليدوية التي اشتهر بحملها مثلما تحمل النساء حقائبهن، وقدّمها لها.
لم تصدق. اهتز بدنها. كادت تقع على الأرض. كانت صورتها عارية، وشاب يضع يديه على نهديها. صرخت:
- هذه ليست صورتي.
قال لها الكابتن سليمان مبتسمًا بعد أن سحب الصورة:
- لا تخافي. نحن يهمنا مصلحتك. اصعدي إلى السيارة لنتفاهم.
صعدت منال إلى السيارة، في الوقت الذي كانت عالية، زميلتها في الصف في المدرسة نفسها، قد اقتربت من المكان. هذه السيارة ليست غريبة على الطلاب، إنها تشبه سيارة المخابرات.
لم تستطع منال أن تقاوم تهديد رجال المخابرات الذين كانوا عن طريق أحد جواسيسهم، صاحب أحد صالونات الحلاقة للنساء، قد ساعدهم قبل عدة أيام على الإيقاع بها، بعد أن جاءت لتصفف شعرها للمشاركة في احتفال زفاف قريبتها سحر، فقد قام صاحب المحل بتقديم كأس من الليمون لمنال مخلوط بمخدر قوي، ثم قام بتصويرها وهي عارية كما طلب منه.
الآن عرفت منال لماذا عادت إلى البيت ذلك المساء وهي تشعر بتعب شديد. كانت تعتقد أنها ذهبت في غفوة ورأسها تحت ماكينة تجفيف الشعر. إذًا فعلها الكلاب. نالوا منها، ومن شرفها، ومن كبريائها.

جاسوسة لهم؟
قال لها الكابتن سليمان:
- إما أن تعملي معنا، أو نوزع صورك على الطالبات؟
خافت من التهديد. شعرت بدوار حادٍّ في رأسها. ماذا لو عرف أبوها وأخوها وأمها؟
أسئلة كثيرة دارت في رأسها لم تعرف لها جوابًا، ولم تعرف القرار الصائب، فانهارت موافقة على التعامل مع الكابتن سليمان. قال لها مبتسمًا ابتسامة صفراء بعد أن انهارت أمامه:
- لا نريد منكِ أن تكوني جاسوسة، بل نريدك أن تخبرينا فقط عن المشاغبين الذين يحرضونكن على المظاهرات، ويعطلون دراستكن. المسألة سهلة جدًّا يا منال؛ في الصباح الساعة السابعة تقفين على بعد أمتار من محلات جنة عدن. سنمر من هناك، ونقف بجانبك لدقيقة تقولين لي فيها عن أية مشاغبات محتملة، وتواصلين سيرك إلى المدرسة.
صمت ثم أكمل:
- إن خدعتيني، سأضطر لتوزيع الصور.

بعد أيام كانت منال تقف في المكان المحدد صباحًا. فجأة توقفت سيارة حمراء وقفت قريبة منها. فتح الشباك. سمعت صوته يناديها:
- منال.

نظرت، فإذا هو نفسه؛ اللعين سليمان. اقتربت منه مرتعبة. سألها:

- هناك مظاهرات ستحدث غدًا، فما أخبار المدرسة النظامية؟

ترددت، فصرخ بها:

- يا شرموطة، سأوزع صورك الآن.

فقالت له بسرعة.

- سيشاركن غدًا في المظاهرة.

- ومن التي تتزعم التحرك؟

- إنها... إنها عالية...

أحست بأنها فقدت آخر إحساس لها بالكرامة، وأنها أصبحت الآن عارية من كل شيء على الرغم من ملابسها التي تغطي جسدها، بينما انطلق هو مع سائقه بالسيارة بسرعة فائقة.

كانت شاردة الذهن تتمنى لو تنشق الأرض وتبلعها. أفاقت من شرودها بعد أن اقترب منها رجل في الأربعين من عمره كان يراقب من بعيد ما يحدث. يعرف الكابتن سليمان جيدًا، فقد اعتقله في العام الماضي.

نظر إليها بغضب وقال لها:

- جاسوسة للاحتلال؟! تفوه، وبصق على الأرض.

الآن أحست بالسكاكين تطعنها. احمر وجهها، وأحست بدوار مرة أخرى. خافت من فضيحة، فوقعت في مصيبة أخرى. لم تعد تعرف أي المصائب أهون عليها.

تابعت طريقها إلى المدرسة وهي تتمتم:
- كنت أمام مصيبة، والآن أنا أمام مصيبتين. لا مجال للتهرب من أي منها. يا حظك يا منال! ماذا سيقول أبوك عندما تبدأ الفضائح تنهال عليه؟ ماذا سيقول أهلي؟ عمي أبو صالح لو عرف أنني جاسوسة سيذبحني. ماذا سأقول لعالية لو عرفت؟ وماذا لو نشروا صوري؟ هل سيقتلونني؟
لعنك الله يا صاحب الصالون. يحب أن تلقى جزاءك.. يجب أن تدفع ثمن أعمالك الشيطانية.

فجأة تذكرت التمثيلية السورية التي شاهدتها قبل شهر عندما يقف فيها البطل أبو عمر ليقول لزوجته في نهايتها:
- مائة حبل مشنقة ولا يقولوا أبو عمر خائن يا خديجة!
ليتها كانت المشنقة لكانت أهون من الصور التي هددوني بها. ليتهم خيروني بين الموت وبين التجسس لحسابهم فأختار المشنقة.

في الليل وقبل بزوغ فجر اليوم التالي كانت قوات الأمن قد اعتقلت عالية وعددا من طالبات المدرسة، فتعطلت المسيرة.
شعرت منال بحجم الضرر الذي ألحقته بعالية. أحست بالعار، وقررت التوقف عن التعامل مع الكابتن سليمان حتى لو وزع الصور. لم تعد تنتظره في المكان الذي تعودت انتظاره فيه، لكنه لم ييأس، فانتظرها بعد أيام قريبًا من البيت، وما أن خرجت

حتى لحق بها. خافت أن يلاحظها أحد. توقفت.. نظرت إليه، وبحركة لا إرادية بصقت عليه:

- تفوه عليك.. انصرف واحد كلب.

ثم تابعت سيرها إلى المدرسة، أما هو فقد غادر المكان دون أن يرد عليها.

وصلت المدرسة وهي تشعر أنها استعادت بعض كبريائها الذي دمرته الصور. دخلت المدرسة. كانت الطالبات يتجمعن في الساحة.. يتهامسن، ويسترقن النظر إليها.

أحست بشيء يحاك ضدها. اقتربت منهن، فابتعدن عنها. شاهدتهن يمررن صورًا عليهن؛ لعلها صورها دون أن تدري. فجأة اقتربت منها صديقة لها تدعى رحاب، وقالت لها معاتبة:

- ما هذه الصور يا منال؟ كيف تسمحين لأحد بأن يصورك عارية؟ هل جننتِ؟

عرفت منال أن نهايتها قد اقتربت. حملت حقيبتها المدرسية، وخرجت من المدرسة تبكي وتجرجر وراءها تعليقات الطالبات عليها، وعلى الفور ذهبت إلى أقرب صيدلية في منطقة شعفاط، اشترت نوعًا من المخدر، وعندما وصلت البيت، شربت كل ما في العلبة. فوجئت أمها بعودتها صباحًا مدعية أنها مريضة. بدأت تصرخ عندما وجدت ابنتها مرمية على الأرض وبجانبها علبة الدواء.

- منال؟! منال؟! ماذا حصل يا منال؟

على الفور تقاطر عليها الجيران، وساعدوها بنقل منال إلى مستشفى المقاصد بالقدس.

في المدرسة انتقل الخبر إلى غرفة المعلمات، فسارعت المعلمة إلهام بتطويق الحادث، وعلى الفور جمعت جميع الصور التي قام مجهول بتوزيعها على بعض الطالبات، وعرفت إلهام بحسها الوطني أن هذا عملاً من أعمال المخابرات، وأنها قد مارست هذا العمل الدنيء لرفض منال التجسس لصالحهم ضد زميلاتها في المدرسة. كانت إلهام قد جربت الاعتقال، وخبرت ممارسات المحققين.

جمعت المعلمة إلهام الطالبات اللواتي كن يتبادلن الصور، وشرحت لهن أهداف المخابرات، وطالبتهن بالوعي والحذر من الأسافين التي يزرعها العدو بيننا.

تنبهت الطالبات للمأزق الذي وُضعت فيه منال، وسألن المعلمة ما العمل؟

- علينا جميعًا زيارتها في بيتها، وتشجيعها على الصمود.

سألت إحدى الطالبات:

- ولكن كيف استطاعوا تصويرها؟

قبل أن ترد إلهام، كانت عالية تدخل الصف، فقد أفرجوا عنها ليلة الأمس في ساعة متأخرة.

كانت البنات سعيدات بخروجها من السجن، وانهالت القبلات عليها من البنات، ومن المعلمة إلهام.

سمعت عالية بما حصل مع منال فوقفت أمام الطالبات تدعم رأي المعلمة إلهام، ثم قالت لهن بصوت يعبر عن اعتزاز بالنفس:

- الصور التي وزّعت عليكن ليست لفضيحة منال فقط، إنها لقتلكن جميعًا.. لإرهابكن بأن لا ترفضن طلبًا لهم.

اليوم منال، وغدًا خديجة، بعدها عبير، والقائمة تطول.

هم يوزعون الصور لأنهم يشعرون أنها تساعدهم في تحقيق أهدافهم،بأن ننهار أمامهم ونتخلى عن أحلامنا.ردّنا عليهم يجب أن يكون بالصمود، ورفض الابتزاز، أما الجواسيس الذين ساعدوا على الإيقاع بمنال فعلينا جميعًا فضحهم، ومحاربتهم، والاقتصاص منهم، وأنا مع المعلمة إلهام، سأكون أول اللواتي يزرن منال في بيتها. لا لن نسمح لهم أن يصطادوا واحدة منا.

بعد الظهر توجّه وفدٌ من الطالبات بصحبة المعلمة إلهام إلى بيت منال، لكنهن فوجئن أنها نزيلة المستشفى، فتحول الوفد إلى هناك.

فوجئت منال بالمعلمة إلهام والطالبات يدخلن عليها. تساءلت: لماذا جئن؟ هل يردن التشفي بها؟

- الحمد لله على السلامة يا منال. ثم عانقتها المعلمة إلهام.

ارتعبت خوفًا. لم تصدق ما ترى. كن في الصباح يتهامسن عليها. ما لهن الآن يهنئنها بالسلامة؟

هذه عالية تتقدم من بينهن.. تبتسم.. تضحك.. تحمل باقة ورد. عانقت منال، وقبلتها بحرارة.

- الحمد لله على سلامتك يا أحلى منال.
كانت منال في حالة يرثى لها وإلى جانبها أمها وأبوها اللذين لم يعرفا بعد قصة الصور. خرجا من الغرفة ليسمحا للطالبات التحدث براحتهن معها.
تعقد لسان منال! أهذه عالية التي كانت تشي بها قبل أيام للكابتن سليمان؟ ترى هل عرفت بذلك؟ هل أستحق قبلتها؟ هل أستحق عطفها وعناقها؟
ردت بصوت خجول عليها، وعليهن جميعًا:
- شكرًا.. الله يسلمكم جميعًا.
بعد ذلك تناوب الجميع بمعانقتها. هنا بدأت المعلمة إلهام حديثها لمنال:
- جئنا لنقول لك لا تخافي. نحن معك. سعداء لأنك على قيد الحياة. أنتِ ابنتنا وتاج رأسنا، ولن نسمح لأحد أن يغير نظرتنا إليك. نحييك أنكِ لم تستجيبي لتهديداتهم.
نظرت إليهن مستغربة، ثم قالت:
- ولكن...
ردّت عالية عليها:
- لا تكملي.. لا يوجد، ولكن...
- عالية أنا... وبدأت تبكي.
ردّت عليها عالية بسرعة:
- عرفنا ما تتعرضين له. لا تكملي. جفّفي دموعك.

عانقتها مرة أخرى، وهمست في أذنها:

- لا تخافي. لقد اكتشفنا صاحب صالون الحلاقة، فقد أوقع غيرك. الشباب سيعاقبونه. اصمدي يا منال. أنا سامحتك.. سامحناك.

قبّلتها على جبينها، ثم أكملت هامسة:

- منال، نريدك معنا. الرد عليهم أن تكوني معنا.

نظرت إليها منال وهي تمسح دموعها، وسألت باستغراب:

- أنا؟ وأشارت إلى نفسها.

فردت عليها عالية بإيماءة من رأسها.

- ولكني ضعيفة!

فقالت عالية:

- كُنتِ ضعيفة، وعندما قلت لهم لا، اكتسبت قوة. لم يبق ما تخافين عليه منهم.

حركت يديها بحركة عفوية، وعانقت عالية بحرارة بعد أن وقفت وهي تذرف دموع الفرح على أكتافها. كانت المعلمة إلهام والطالبات يصفقن لهذا المنظر الرائع. فتح الباب والداها ليعرفا سر هذا التصفيق، وانضما للطالبات يصفقان معهن لعناق ابنتهما مع عالية الذي استمر طويلاً دون أن يعرفا سر هذا العناق الأخوي الرائع.

(**حزيران ٢٠٠٨**)

❖ ❖ ❖

باب خان الزيت

من باب العامود كان يمر كل يوم رافعًا رأسه للأعلى ترمقه كل العيون لقامته المديدة وطوله الفارع. تتلفّت عيونه يمينًا وشمالاً كأنه يبحث عن شيء في عيون المارة، أو يتحسب من شيء يلاحقه. أتراه يبحث عن حبيبته بين المارة، أم تلاحقه عيون الجواسيس والمخبرين؟

باب العامود، أو بوابة دمشق كما كانوا يسمونها، هي البوابة الرئيسة للبلدة القديمة من القدس، ومنها يمرّ يوميًّا أكثر من نصف الداخلين والخارجين منها.

باب العامود كان نقطة الحدود اليومية التي عليه أن يجتازها سواء للذهاب إلى المدرسة، أو العمل، أو لأي شيء آخر. إنه طريقه اليومي وربما الأساسي، حتى صار عادة يومية يمارسها، فمن هناك يدخل إلى شارع (باب خان الزيت) حيث يسكن على بعد مائتي متر من أول الشارع. تذكرني به كلما سمعتها قصيدة سميح القاسم التي يغنيها المطرب اللبناني المحبوب مارسيل خليفة، وكأني به يغنيها له:

(منتصب القامة أمشي
مرفوع الهامة أمشي
في كفي قصفة زيتون
وعلى كتفي نعشي
وأنا وأنا أمشي)

لا أدري لماذا كلما سمعت تلك الأغنية تذكّرته وهو يسير من هناك مرفوع القامة يمشي، حتى كأنني بالشاعر كتبها له.

فتيات الحارة كنّ يتشوقن لرؤيته، فقد كان جميلاً حقًا يرسل ابتساماته الجذابة خلفهن كل صباح فلا تخطئ واحدة منهن. كنّ يتغامزن عليه، وكل منهن تتمناه فارس أحلامها، فلا يزال في مقتبل العمر ولم يتزوج بعد، وهذا ما جعله عرضة لسهامهن، فعيون الصبايا اللواتي يسرقن النظر إليه كثيرة حتى يحتار هو نفسه أيها يختار.

هذا الفتى الطويل القامة الذي يمشي مشية القادة الميدانيين المتواضعين، كان رياضيًّا من الدرجة الأولى يمارس لعبة كمال الأجسام، وفاز في بطولة الضفة الغربية في العام (١٩٧٤)، لذلك كان يعرفه كل أهل البلدة القديمة، بل كل سكان القدس، وربما الكثير من سكان المدن الأخرى.

مَن قال إن الرجال لا يبكون فقد أخطأ، لأنه ربما لا يعرف معدن الرجال الأوفياء، أو ربما لأنه ما زال متأثرًا بمقولة جداتنا: إن البكاء للنساء وللأطفال، فهكذا نعلم أبناءنا دائمًا :

لا تبك يا ولدي فالبكاء للصغار وأنت أصبحت كبيرًا.

لم يعرفوا أن البكاء ضريبة علينا يؤديها الرجال الأوفياء لأحبائهم وأصدقائهم الراحلين كلما تذكروهم.

وحدهم الرجال الأوفياء الذين يعرفون كيف يغلقون عيونهم في لحظات معينة ليتعانقوا مع أحبائهم الراحلين الذين يزورونهم

بين الفينة والأخرى على فرس بيضاء والابتسامة تغزو وجوههم.

كلما مررت من باب خان الزيت أتذكره، فقد كان يسكن في إحدى زوايا الشارع المطلة على باب خان الزيت. كان صديق كل أصحاب المحلات هناك، ومعظم المارة وطلاب المدارس يتجاذبون الحديث معه خصوصًا عندما كان يقف عند مكتبة الأندلس يتجاذب أطراف الحديث مع صديقه أحمد عويضة، والذي كان والده يملك محلاً تجاريًّا لبيع المكسرات مقابل المكتبة (محل بيع الكتب والقرطاسية.)

باب خان الزيت لم يكن شارع طفولته فحسب، ولكنه كان وطنه الصغير، فقد ترعرع هناك، وعاش حياته كلها، ودافع عن فلسطين، واشتبك مع جيش الاحتلال، وأخيرًا...

كان شجاعًا وجريئًا يريد للمحتل أن يرحل. يريده أن يغادر بلادنا لنحيا كما يحيا كل الناس بسلام وأمن. يريد للمحتل أن يرحل حتى يستطيع أن يكتب لحبيبته رسالة حب بعيدًا عن ملاحقة الجيش الإسرائيلي الغاصب، والذي كان يفتش شنطة كتبه أيام الدراسة بحثًا عن منشور سري، أو علم فلسطين.

في التظاهرات الطلابية كان يتصدر المتظاهرين، وكنا نسير خلفه، أو كان هو يتقدمنا رغمًا عنا، فاستحق أن يكون بطل القدس بلا منازع.

في أحد المرات، كان أحد الجنود الإسرائيليين يمشي وحيدًا في باب خان الزيت رافعًا سلاحه، فتوقف المتظاهرون بعيدًا خوفًا من إطلاق النار عليهم كما هي عادة الجنود، ولكنه لم يخف، فتقدم نحو الجندي غير آبه بسلاحه، وقال له:

- لماذا أنت هنا؟

لم يعرف الجندي ماذا يرد؛ هل يطلق النار عليه ويرديه قتيلاً؟ ولكن ماذا لو هجم عليه كل المتظاهرين بعد أن يقتله؟!

- لا لا لن أقتله. قال الجندي في نفسه.

تراجع الجندي ويده على الزناد وقال له محذرًا:

- لا تقترب.

نظر الفارس في عيون الجندي فرآه خائفًا فلم يتوقف، واستمر في التقدم، وعندما اقترب منه هجم عليه يضربه ويركله.

- ما أروعها من لكمات. قال محمود لنفسه.

يخيّل إلي أنني أوجّه هذه اللكمات لكل جيش الاحتلال. إنها رسالتي لهم، بل رسالة شعبنا كله.

هذا الجندي لن يخيفنا حتى لو أطلق الرصاص. بإمكاني أن أقتله، ولكني لن أفعل ذلك. سأتركه يعيش ويعود لأمه ليبلغها وليبلغ قادته وأصدقاءه أنني لم أقتله. ليس لأنني خائف، فلو كنت خائفًا لتراجعت أمام سلاحه المصوب نحوي، ولكن لأنني أريد أن يبلغهم رسالتنا.

قل لهم اتركوا وطننا. انسحبوا. شعبنا لا يريدكم.

خاف عليه أصدقاؤه، فقال له بعضهم:
- دع الجندي يهرب حتى لا يطلق الرصاص.
ترك الجندي يهرب مذعورًا تلاحقه الأحجار وعلب الكولا الفارغة. أراد للجندي أن يعود ليبلغ رسالته لأهله، وأصدقائه، ومن أرسلوه، بأن شعبنا لا يريدكم، فارحلوا عنا. شعبنا ليس متعطشًا للدماء، ولكنه متعطش للحرية. إنها رسالة الشعب للمحتلين أن ارحلوا عن بلادنا فلسطين.

بعد أشهر، وفي باب خان الزيت، ها هو يقف في أحب الأماكن لقلبه؛ أمام مكتبة الأندلس. وقف هناك يتأمل المارة، وفجأة مرت دورية راجلة لجيش الاحتلال الإسرائيلي يجرّون طالبة فلسطينية صغيرة السن، ويضربونها بأعقاب البنادق.
ثارت ثائرته وهو يرى دمها يسيل من وجهها والناس يتفرجون لا يستطيعون عمل شيء خوفًا من بنادق أفراد الدورية الموجهة إليهم. تقدم من الجنود قائلاً:
- حرام عليكم اتركوها.
- روخ من هون. قال أحد الجنود موجهًا سلاحه نحو صدره.
صرخت فيه الفتاة تستنجد به:
- دخيلك خلصني منهم. ضربوني.
بكت وهي تتوسل له.
كانت طالبة صغيرة السن، ربما ١٤ سنة.

استشاط غضبًا. تمنى لو كان يملك قوة سوبرمان فيحرقهم جميعهم.

أكملت الفتاة:

- حبسوني لأنهم وجدوا معي في الحقيبة المدرسية علم فلسطين.

رفع العلم الفلسطيني لم يكن سهلاً كما هو الآن. كان حامله يتعرض للضرب والسجن. رفع العلم كان يخيفهم لأنه رمز هوية الفلسطيني الذي يريدون شطبه من الخريطة السياسية.

لم يتراجع ولم يستمع لكلام الجندي، بل استمر في التقدم رويدًا رويدًا لعله يحاول أن يخلصها منهم.

- اتركوها يا كلاب. صرخ فيهم.

فجأة توقفت الطالبة عن الصراخ، فقد أعاد لها صوته رباطة جأشها. نظرت إليه بكبريائها المجروح وكأنها وجدت ضالتها التي تبحث عنها.

هذا الشاب وصرخته (اتركوها يا كلاب) أفاقتها من مصيبتها. لم يعد البكاء مجديًا، فلا بد أن معتصمًا فلسطينيًّا آت. تشجعت الطالبة، وبدأت تقاوم الجنود تريد الإفلات من أيديهم، وبدأت تشتمهم:

- اتركوني يا كلاب.

المارة تسمروا في أماكنهم. لا بد أن شيئًا ما سيحدث. لم يتعودوا أن يروا تلك الجرأة من قبل، فالسلاح مصوب إلى صدره من

قبل خمسة جنود وهو أعزل إلا من إيمانه بقضيته، فلم يصبر على ما رأى.

ليس معه سلاح، ولم يكن آنذاك قد بدأ المقاومون يستخدمون الأحزمة الناسفة ليخافوا منه، ولم يكن طوله وعضلاته قادرة على هزيمة خمسة جنود مدججين بأسلحتهم الرشاشة.

إصراره على تخليصها منهم هو ما أخافهم. تحديه لهم أرعبهم. نظرات عيونه زرعت فيهم الرعب. صرخته (اتركوها يا كلاب) هزت كيانهم. كانوا يتساءلون: ما الذي يدفع هذا الشاب لحتفه؟ ألا يخاف منا؟ كل ما علينا عمله هو الضغط على الزناد وينتهي كل شيء.

- إنه أهبل ومجنون بالتأكيد. قالها أحد الجنود.

- يقامر بحياته من أجل طالبة لا يعرفها. قال جندي آخر.

كان يقف أمامهم لا يفكر بشيء غير إنقاذ تلك الطالبة. لم يعرفوا أن الطالبة كانت بالنسبة إليه الوطن كله، والدفاع عنها دفاع عن الوطن، والموت في سبيل إنقاذها شهادة يتمناها كل فلسطيني.

- ألم يعلن المعتصم حربًا على الروم لأن امرأة استنجدت به بعد اعتداء الروم عليها؟ تساءل وهو ينظر إلى الجنود وسلاحهم المصوب نحوه.

لكنه المعتصم ومعه جيش جرار وأنا لا أملك شيئًا.

- بل أملك إيماني بشعبي ووطني. ترى ماذا كان يمكن للمعتصم أن يفعل لو كان الآن مكاني؟ هل يستسلم أم يحاول إنقاذها؟

كيف يمكن ترك الجنود يضربون طالبة أمام أعيننا وكلنا نتفرج ندعو الله أن يفك أسرها؟ لا لا، لا بد من عمل شيء.

تقدم أكثر أصبحت البندقية في صدره تمامًا.

قال لهم:

- اتركوها تذهب، فهي لم ترتكب جريمة. أنتم المحتلون ارحلوا عن أرضنا.

- روخ من هون قبل ما نطخك (اذهب من هنا قبل أن نطلق عليك النار).

كان ذلك إنذارهم الأخير.

تقدم نحو الطالبة ليمسك بها محاولاً تخليصها منهم. شدها بقوة. أمسكت يديه وساعدته على التخلص من يد الجندي الذي كان مشغولاً بحمل السلاح، وأخيرًا نجح بشدها منهم، ولكن رصاصاتهم لم تمهله ليتم واجبه، فقد أطلقوا عليه أكثر من عشر رصاصات مع أن رصاصة واحدة كانت تكفي لقتله.

سقط على الأرض مضرجًا بدمه، فتسمرت الطالبة مكانها. شدت شعرها وصرخت غير آبهة بسلاحهم:

- كلاب كلكم كلاب. قتلتموه يا قتلة يا مجرمون.

هجمت عليه تحركه لعله يكون على قيد الحياة، ولكن عبثًا حاولت.

الجنود انهمكوا في تصويب السلاح تجاه المواطنين يأمرونهم بالابتعاد مطلقين عشرات الرصاصات في الهواء، بينما اتصل

أحدهم بالمسؤول عنه يبلغه بما حصل،أما الطالبة فقد ألقت بنفسها عليه تضمه إلى صدرها، وتقبّل رأسه وكأنه ابنها، أو أبوها، أو حبيبها.

ألم يخاطر بنفسه من أجلها؟ ألم يعد لها كرامتها؟ ألم تر في عيونه معتصمًا جديدًا تحدى الجنود وهو أعزل ليخلصها منهم؟

ألم تر في وجهه صورة صلاح الدين؟

يا الله. مرت لحظات قبل أن يستشهد. كنت أتمنى أن يكون هذا الشاب فارس أحلامي! أي رجل سأحب بعد الآن إن لم يكن مثله شهامة وبطولة؟

تركه الجنود ملقى على الأرض، وتركوا الطالبة تصرخ بجانبه:

- قتلتموه يا كلاب.

وانسحبوا من المنطقة.

هناك قريبًا من بيته الذي لم يبعد سوى مائة متر سال دمه، فاستحق أن يكون ذلك الشارع شارعه بلا منازع مهما تغيرت الأزمان.

ثلاثون عامًا مرت على استشهاده، وما زالت آثار دمائه هناك.

دم لم تغسله المياه ولا السنوات. دمه المقدس حفر على بلاط باب خان الزيت ملحمة سترويها الأجيال. أليس من حق أصدقائه وأحبائه الأوفياء أن يذرفوا الدموع كلما مروا من هناك وشاهدوا طيفه بقامته المديدة؟! أليس من حق تلك الطالبة أن

تتذكره كلما مرت من هناك؟ أليس من حقها أن تذرف الدموع كلما مرت من باب خان الزيت؟ مَنْ يستطيع أن يمنعها من ذلك؟ أليس من حق سكان ذلك الشارع أن يتذكروا محمود الكرد كلما غنى مارسيل خليفة قصيدة سميح القاسم:

(منتصب القامة أمشي
مرفوع الهامة أمشي
في كفي قصفة زيتون
وعلى كتفي نعشي
وأنا وأنا
وأنا أمشي)

سقط محمود الكرد شهيدًا، وما زالت رسالته تمشي. ما زال شعبه يمشي، ولا يزال شعبنا في باب خان الزيت منتصب القامة يمشي.

(كانون ثان- ديسمبر 2005)

❖ ❖ ❖

ثلاث وردات

كان يفاجئها كل صباح في الطريق إلى المدرسة، كأنه على موعد معها. لم تكن فاتنة. تعلم أن خليل يتعمد ذلك، وينتظر مرورها من باب العامود ليسير خلفها حتى أول شارع صلاح الدين، حيث يذهب هو إلى المدرسة الرشيدية القريبة من هناك، فيما تواصل هي طريقها إلى المدرسة المأمونية التي تبعد عن مدرسته خمس دقائق سيرًا على الأقدام في مدينة القدس، وكان حريصًا عند وداعها في مدخل شارع صلاح الدين أن يرسل إليها ابتسامة خفيفة كعادة عشاق السبعينيات من القرن العشرين، ويغمض عينيه لثانيتين، ثم يفتحهما كأنه يرسل إليها رسالته اليومية المليئة بمشاعر العشق والغرام.

كان خليل يسكن في عقبة البطيخ في البلدة القديمة قريبًا من منجرة صندوقة، أما هي فكانت تسكن في شارع الواد القريب منه، قريبًا من مخبز الحشيمة المشهور بالكعك مع السمسم والبيض المشوي. وكلما عنَّ على باله رؤيتها بعد الدوام المدرسي، يذهب إلى مخبز الحشيم ليشتري كعكة أو أكثر، وبعض البيض لعله يصادفها خارجة من البيت، أو عائدة إليه.
إنه شاب ظريف، لكنها كانت تخاف أن يشعر أحد بملاحقته لها فتحصل كارثة، فقد يضربها أبوها ويمنعها من الدراسة.
في أحد الأيام اقترب منها كثيرًا، ودس لها ورقة في شنطتها. استغربت هذه الجرأة غير المعهودة فيه. ماتت خوفًا، فلو رآها أحد ماذا سيقول؟

كادت تسحب الورقة من الشنطة وترميها له. نظرت، فإذا به اختفى هذه المرة كغير عادته. فكرت قبل أن ترمي رسالته، ماذا لو رآها أحد الطلاب، فحملها وقرأ ما بها؟ ستكون المصيبة أكبر، وتصير فاتنة على كل لسان.

فكرت قليلاً، ثم تراجعت عن خطتها، ستقرأ الرسالة في المدرسة، ثم تمزقها وترميها على الفور.

ـ يا له من عاشق! أيحبني إلى هذا الحد؟ إن كان يحبني عليه أن يحرص على مصلحتي. سأعاتبه في المرة القادمة. لكن كيف أعاتبه وأنا لا أحادثه؟ سأرى ما كتبه لي في رسالته.

وصلت فاتنة المدرسة. انزوت جانبًا. أخرجت الرسالة من حقيبتها. فتحتها، فإذا بها بيان مطبوع لمناسبة (يوم الأرض) الذي يصادف الواحد والثلاثين من آذار في اليوم التالي، يدعو الطلاب إلى الإضراب عن الدراسة، وفي ختام البيان كلمات الشاعر الفلسطيني سميح القاسم:

(يا عدو الشمس لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي
سأقاوم)

الآن عرفت فاتنة سر جرأته في دس الرسالة في حقيبتها؛ إنه يريدها توزيع البيان على الطالبات، وإنه من الوطنيين إذًا.

حمدت الله أنها لم تتلفه قبل قراءته.

وزعت النسخة على الطالبات اللواتي تلقفنه واحدة بعد الأخرى، وقررن المشاركة في المسيرة السلمية التي ستنطلق في اليوم التالي بالمناسبة، حاملات الأعلام الفلسطينية ويافطات تطالب بوقف مصادرة الأراضي من المواطنين العرب.

في اليوم التالي، خرجت طالبات مدرسة المأمونية في مسيرة حاشدة باتجاه باب الساهرة، فالتقت المسيرة هناك بطلبة المدرسة الرشيدية للذكور، وبعد دقائق انضم إليهم طلبة الكلية الإبراهيمية (ذكورً، وإناثًا)، ثم بدأت مسيرات الطلبة تتضاعف بمشاركة طلبة المدارس الأخرى، وانطلق المتظاهرون نحو باب العامود (الباب الرئيس) للبلدة القديمة.
كانت أعلام فلسطين؛ الممنوعة في تلك الأيام؛ ترفرف عاليًا، وقبل أن تصل المسيرة باب العامود، وهي مسافة قصيرة، كانت سيارة الشرطة الإسرائيلية، وحرس الحدود، وخيّالة القمع، تحاصر المتظاهرين من كل الجهات، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتظاهرون سلميًّا، إلا أن قوات الشرطة والجيش بدؤوا بإطلاق الرصاص الحي والمطاطي عليهم.

ها هو خليل يظهر مرة أخرى، هذه المرة محمولاً فوق الأكتاف رافعًا علم فلسطين، هاتفًا بصوت لا زال يتردد صداه في أذنها:
(فلسطين عربية
فلترحل الصهيونية)

لم يكمل خليل هتافه، فقد سقط برصاصة أصابته في يده، وتوالى الرصاص، فاضطر الطلاب إلى التفرق يجرون معهم جراحهم، واعتقلت الشرطة عشرات منهم.

عادت فاتنة إلى البيت وقد ازدادت إعجابًا بخليل، متمنية أن تراه سالمًا في اليوم التالي. لم يكن في تلك الأيام هواتف خلوية ولا فضائيات، وكانت الإذاعات العربية تكتفي بنشر خبر عام عن المسيرة لذلك لم تستطيع معرفة أخبار خليل، ولا كيف تطمئن عليه.

توجهت صباح اليوم التالي إلى المدرسة، لكنها لم تجد خليل ينتظرها كعادته، فعرفت من بعض الطالبات في المدرسة أنه نزيل مستشفى المقاصد الخيرية في جبل الطور، فقررت بعد الظهر زيارته للاطمئنان على صحته.

في الطريق من شارع صلاح الدين مرّت على محل بيع الزهور، واقتربت من صاحب المحل بخجل، وسألته:

ـ ألديك وردة بعشرة قروش؟

نظر إليها صاحب المحل وقد استفزه سؤالها، فأسعار الورد أكثر من ذلك بكثير، وقال لها:

ـ اذهبي لشأنك أيتها الطالبة.

فجأة خرجت من داخل المحل امرأة يبدو أنها زوجته، وسألتها بعد أن رأت فيها صورة لها وهي طالبة مدرسة:

ـ لماذا تريدين الوردة؟

أجابتها بهدوء:
- لكي أهديها إلى مريض.
نظرت إليها مبتسمة، ثم سألتها:
- أإلى حبيب القلب؟
ارتبكت فاتنة. صمتت، ثم قالت:
- إنه بطل جرح يوم أمس.
- وأين هذا البطل الآن؟
- في مستشفى المقاصد.
دخلت المرأة إلى المحل، ثم خرجت ومعها صحيفة (القدس) بيدها، وسألتها وهي تريها صور الجرحى المنشورين في الصفحة الأولى:
- هل هو أحدهم؟.
فوجئت فاتنة بصورته في صدر الصفحة الأولى، وقالت لها بصوت يملأه الفخر:
- نعم إنه ذلك...
- حسنًا، سأتركك تختارين ٣ وردات بعشرة قروش. لن أقدمها لك مجانًا، لكي تشعري بقيمتها.
شكرت فاتنة المرأة، وحملت الوردات بعد أن لفتهم المرأة بورقة بسبب الشوك الذي يملأ سيقانهن، وانطلقت إلى مستشفى المقاصد مشيًا على الأقدام بعد أن لم يبق معها أجرة الطريق، وعلى الرغم من أن المسافة لم تكن بعيدة، حوالي كيلو مترين،

لكن جبل الطور ينحدر كثيرًا، فيصبح المشي إلى القمة متعبًا إلى أبعد الحدود، ولكن من أجل خليل قررت تحمل الصعاب.

توجهت فاتنة إلى غرفة خليل مباشرة بعد الاستفسار من غرفة الاستعلامات، لكنها فوجئت بطلبة كثيرين حول سريره، والأجهزة الطبية تلفه من كل جانب.

خجلت، وكادت تعود من حيث أتت، ولكنها تجرأت في النهاية. استجمعت كل قواها، واقتحمت بورداتها الغرفة المليئة أصلاً بباقات الورد من مختلف الأنواع. صمت الجميع لدى دخولها، وبدأت العيون تتوجه إليها، وإلى ورداتها الثلاث، وشنطتها التي تتدلى على وسطها بينما الحزام (حزام الحقيبة) على كتفها.

عندما رآها خليل تسير باتجاهه فوجئ بها. عدّل جلسته، وبدأت دقات قلبه تزداد. ردّ على ابتسامتها بأخرى مماثلة. كانت تسير بخطى بطيئة، وترفع بيدها ورداتها، وعيونه تلاحق كل حركة من يدها. تطارد كل تعبيرات وجهها، وحركات شفتيها، ورموش عينيها. كان حلمه أن يراها قادمة إليه. تمنى لو يحملها الآن، ويطير بها على فرس أبيض.

عندما اقتربت منه أغمضت عينيها لثانيتين كما كان يفعل عندما يودعها كل صباح، كأنها ترد على رسائله برسالة أخرى تطفئ أشواقه.

كان بعيونه يرسل إليها رسالة خاف أن يبوح بها عبر شفتيه:

- أنا أحبك يا فاتنة.

فماذا في رسالتها اليوم؟
آه ليت تلك العيون تطيل النظر إليه، ليفهم ما يحيط بها من أسرار.
تأخر في استلام ورداتها، كأنه يتعمد في تأخيرها، أو كأن عيونها أنسته الوردات لأن أمام عينيه، وردة أكبر وأكثر بهاء وجمالاً.
ذابت خجلاً،وازداد وجهها احمرارًا. رد عليها برسالة من عينيه.
وضع أصابعه حول الوردات فأمسك بالأشواك، فجرح أصابعه دون أن يدري.
قالت له بصوت ناعم:
- الحمد لله على السلامة يا بطل. وغادرت الغرفة بعد أن تحوّل خداها إلى تفاحتين حمراوين. سال الدم من أصابعه. انطلق أحد الطلبة لإسعافه: يبدو أنك نسيت نفسك. وقال آخر:
- أتعرفها؟
ثم بدأت تنهمر التعليقات.

عاد خليل بعد أسبوع إلى المدرسة إثر شفائه من إصابته، لكنه فوجئ بغياب فاتنة. كان متوتر الأعصاب، فعاد ينتظرها في اليوم الثاني، والثالث، وعندما تكرر غيابها خشي أن يكون قد حصل لها مكروه بسبب زيارتها له في المستشفى، فقرر زيارة مخبز الكعك في شارع الواد، وهناك بدأ يستفسر من صاحب المخبز عن جيرانه، فقال له عزمي الحشيمة صاحب المخبز:

- يا خليل بدون لفٍّ ودوران، ماذا تريد؟

ضحك خليل وقال:

- فاتنة ابنة جاركم لم تعد تأتي إلى المدرسة.

- ألم تعرف لماذا؟

- خيرًا إن شاء الله.

- لقد سافرت العائلة كلها إلى الولايات المتحدة.

- ماذا تقول؟

- كما سمعت.

- متى؟

- منذ أسبوع.

- ومتى سيعودون؟

- لقد هاجروا نهائيًّا.

تغير وجه خليل. ترك الكعك، وغادر المخبز.

ناداه عزمي:

- يا خليل، الكعك...

عاد خليل من المخبز بعد أن نسي الكعك الذي اشتراه، وظل طوال الطريق يلعن الولايات المتحدة، والآباء الذين يهجرون أوطانهم إليها.

(**حزيران** ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

جراح لن تندمل

في إحدى غرف سجن عسقلان في منتصف ثمانينيات القرن الماضي (العشرين)، كان عماد المسؤول الأمني في الغرفة يلاحظ أحد الأسرى يقوم بحركة سريعة عندما يمر السجان من أمامه أثناء عد الأسرى، حيث يجري عدهم أربع مرات كل يوم. كان الأسير ماهر أحيانًا يحك رأسه عندما يمر السجان من أمامه، وأحيانًا يحك أنفه، ومرة ثالثة يفرك عينيه، ومرة رابعة يرفع رأسه إلى الأعلى. هذه الحركات لم تكن طبيعية؛ فبعد كل حركة كانت إدارة السجن تقوم بدهم القسم وتفتيشه، لذا قررت لجنة الأمن إخضاع الأسير ماهر للتحقيق الفوري.

في اليوم التالي بعد أن انتهت فترة العشاء، طلب عماد من ماهر الحديث منفردًا في إحدى زوايا الغرفة بعيدًا عن باب الغرفة وعين السجان، وطلب من بقية الأسرى الابتعاد قليلاً عنه حتى لا يستمعوا لحديثهم الجانبي.

بعد حديث قصير، قدّم عماد المسؤول الأمني والمكلف بالتحقيق مع ماهر إليه رسالة طلب منه قراءتها قبل المباشرة بالحديث.

كان عماد قد وزّع المهمات على أسرى الغرفة على الشكل التالي؛ أسيران يحملان أدوات معدنية حادة كالسكاكين مهمتهما طعن ماهر إن حاول الاستغاثة بالسجان والصراخ، واثنان مهمتهما إغلاق فمه إن حاول الصراخ، وأسير واحد مكلف بمراقبة مردوان القسم والتأكد بأن السجان يجلس بعيدًا عن الغرفة.

بدأ ماهر يقرأ الرسالة:
(إلى ماهر)...
قبل أن يكمل ماهر قراءة رسالته أحس بشيء غير طبيعي؛ مطلع الرسالة لا يوحي بالخير. إنهم يخاطبونه دون كلمة الأخ، أو الرفيق، أو المناضل [يبدو أنني كُشِفت]
تابع الرسالة...
(يحاول العدو الصهيوني الإيقاع بالمناضلين في شباكه، حيث يقوم بإجبارهم بالتهديد، أو الترغيب، بالتعامل معه، والتجسس على إخوتهم الأسرى مقابل وعودات بائسة ومكاسب خادعة.
إن الثورة تحاول أن تميز بين الجواسيس الذين ما زالوا في بداية الطريق، وبين الأشد خطرًا الذين قدّموا معلومات أضرت بالمناضلين، وعرّضت حياتهم للخطر. الثورة طريق إصلاح هدفها الأول والأساس فك ارتباط الجواسيس بالعدو الصهيوني.
إنها فرصة أمامك لتعترف بمحض إرادتك بكل علاقتك بإدارة السجن، والتعاون مع لجنة التحقيق مع التعهد بعدم إيذائك، وفي حال إنكارك سنضطر لاستخدام العنف معك، ونحذرك من أية محاولة للاستغاثة بالسجان، فقبل وصول أحد لحمايتك ستكون سكاكين المناضلين قد مزقت جسدك في كل مكان.
إنها لثورة حتى النصر.)
كان ماهر كلما قرأ سطرًا زاد عرقه تصببًا، واحمرّ وجهه، وزادت دقات قلبه.

ـ هل أنكر؟ لا.. لقد انكشف كل شيء.
عندما أنهى الرسالة بدأ يبكي. غطى وجهه بيديه، ثم قال لعماد:
ـ أنا حقير، تافه لا أستحق أن أكون بينكم. افعلوا بي ما تريدون. أنا فعلاً جاسوس أقدّم للإدارة المعلومات عنكم. أطلب الرحمة. لا تفضحوني أرجوكم. لا تخبروا أهلي. سيموت أبي لو عرف ذلك. لن يزورني أحد من الأهل.
قال له المسؤول الأمني الذي تعوّد على تلك الحركات من الجواسيس لحظة انكشافهم:
ـ أريدك الآن أن تركّز معي، وتجيب بصدق عن كل سؤال أسألك إياه.
بدأ يسأله عن كل صغيرة وكبيرة، وكان كل فترة يعيد عليه بعض الأسئلة بطريقة أخرى للتأكد من تقديم الإجابة ذاتها. وبعد أن أنهى جولته الأولى قدّم له قلمًا وورقة وطلب منه كتابة تقرير شامل عن حياته منذ ولادته حتى اليوم، وقصة ارتباطه مع العدو بغض النظر عن المعلومات التي قدّمها خلال استجوابه الأول.

كان ماهر قد ارتبط مع المخابرات الإسرائيلية خارج القضبان، وكلفته المخابرات الالتحاق بالحركة، فانضم إليها عن طريق أحد الأعضاء في قريته، وأصبح بعد ذلك عضوًا في خلية، وبعد أن قامت ببعض النشاطات، واستعدت للقيام بعملية عسكرية كبيرة، هاجمتها القوات الإسرائيلية، وألقت القبض عليها، وكي

لا ينكشف أمر جاسوسها ماهر فقد اعتقلته معها، وعندما طالب بإطلاق سراحه لأنه كان جاسوسًا لهم ولم يكن عضوًا بالحركة، هددوه بالالتزام بالأوامر، وإلا كشفوا علاقته معهم، حينها سيواجه الإعدام من رفاق دربه، فاستمر بالتعامل معهم داخل السجن، ولم يستطع التخلص من المصيبة التي ورط نفسه بها.

كانت مهمته تقديم المعلومات عبر الإشارات، فكل إشارة تعني رمزًا معينًا، وربما لم يكن يعنيهم بعض الإشارات، ولكنها وسيلة لربطه الدائم معهم، وإشعاره أنه جاسوس يخون شعبه، وأنه لا يستحق عطفهم ولا رعايتهم.

توقف ماهر عن تقديم الإشارات ما أثار شكوك إدارة السجن، فبدأت تخطط لكيفية الاتصال مباشرة بجاسوسها القديم.

مفاجأة ماهر كانت اعترافه بأنه مرتبط مع الإدارة مع جاسوس آخر بتبادل معه المعلومات؛ إنه راتب الذي لم تستطع لجنة الأمن أن تسجل عليه أية شبهة أمنية.

- راتب؟

- نعم راتب.

خضع راتب لتحقيق عنيف، ولكنه أنكر التهمة الموجهة إليه، ورفض أن يكون موضع اتهام. تحمّل راتب أقسى أنواع التحقيق، وكاد أن يموت بين أيديهم وهو يكرر:

- أنا بريء. لا يمكن أن أكون جاسوسًا. لا أبيع وطني بكل كنوز الدنيا. هناك خطأ بمصدر معلوماتكم. أرجوكم لا تتسرّعوا.

لكن التحقيق العنيف مع راتب أفقده توازنه؛ فلم يعد قادرًا على الوقوف، وظل مصممًا على موقفه.

- أنا بريء.

لجنة الأمن توصلت إلى قناعة بعد عشرة أيام من التحقيق المتواصل أنها تسرعت في إخضاع راتب للتحقيق، فأعادت ماهر إلى التحقيق العنيف، حيث اعترف في اليوم التالي بأنه لا يعرف إن كان راتب جاسوسًا أم لا، وأن إدارة السجن هي التي طلبت منه أن يعترف على راتب بأنه جاسوس مثله عندما يتم اكتشافه.

فوجئت لجنة الأمن بذلك، وحمّلت ماهر المسؤولية عن تضليلها لأنه كان قد اعترف بأنه ينسق مع راتب حول المعلومات عن الأسرى، ولكن اعترافه الأول لم يكن دقيقًا.

هذا الخلل أساء إلى أحد المناضلين.

كم الجراح التي يصعب تضميدها الآن في ذاكرة راتب؟!

بيان فوري صدر إلى أسرى سجن عسقلان يوضح ملابسات المناضل راتب، ويؤكد براءته، ويطالب الجميع بالتضامن معه، وإعادة البسمة إلى شفتيه. إنه اعتذار علني.

تقدّم منه كل أسير في القسم بمعانقته والشد على يديه. بعض أصدقائه المقربين بادلوه البكاء. لقد عرفوا كم من الجراح خلّفها التحقيق على جسده وعلى كرامته.

إنها أيام رهيبة. ما أقساها! ما أقسى أن يتهم المناضلون بوطنيتهم! ضحى بحياته. تعرض للاعتداء من قبل قوات الاحتلال. عانى من مرارة السجن وحرمانه. حرم من رؤية أهله إلا ما ندر، وأخيرًا يتهم بوطنيته. يضرب من قبل إخوة له بالنضال. كانوا يعصبون عينيه فلا يعرف من كان يضربه. لكنه يعرفهم، فالغرفة تضم ثمانية أشخاص مَن سواهم؟!

هل ستطوي الأيام تلك الصفحات، أم ستظل جرحًا غائرًا في الذاكرة؟

أحد الإخوة الذي كان مكلّفًا بجلده قدّم بعد الحادث استقالته من الحركة، ولم يعد يمارس أية مهمة حزبية. لم يستوعب أبدًا أنه كان يكيل الضربات القاسية لمناضل شريف. كان يستيقظ بالليل قلقًا؛ أحلام وكوابيس تهاجمه كل ليلة. لم يعد يستوعب كيف تحوّل لفترة من الزمن إلى جلاد رفيق دربه في النضال!

خيّرت اللجنة الأمنية في القسم على راتب أن يقوم بجلد ماهر بنفسه انتقامًا لما حصل له، ولكنه رفض ذلك، فما حصل لا يتحمل مسؤوليته ماهر، بل لجنة الأمن الداخلية التي صدقت اعترافات أحد الجواسيس دون أن تفحص إن كان يقدم لها معلومات كاذبة ومفبركة.

بعد أسبوع، استدعت الإدارة الأسير ماهر إلى العيادة الطبية لمراجعة الطبيب، فالجواسيس لهم طرقهم في الاتصال المباشر مع إدارة السجن، وأبرزها العيادة الطبية، والسجان أو الممرض

دائمًا يكون أحد رجال المخابرات، حيث يتم دعوة عدة سجناء مرضى لمراجعة الطبيب لأمراض مختلفة، ويكون الجواسيس بينهم.

اقترب مسؤول الأمن من ماهر. سلّم عليه، وهمس في أذنه بعض الكلمات دون أن يسمعه أحد.

تجمع المرضى من كل القسم وعددهم ستة، وفتح لهم الباب إلى العيادة الطبية.

كان ماهر أول الداخلين إلى العيادة، فيما بقي الخمسة الآخرون ينتظرون دورهم.

بعد عدة دقائق سمعوا صراخًا حادًّا من العيادة. فتح الباب فجأة. هرول السجانون إلى العيادة، فيما تم سحبهم إلى غرفة مجاورة. نظروا بسرعة ليعرفوا ما الأمر، فإذا بماهر يضرب بشفرة حادة الممرض.

ماهر يضرب رجل المخابرات الذي يلبس لباس الممرض. إنه يعلن له انتهاء الحبل الذي يلفونه حول رقبته.

هجموا عليه، وكالوا له اللكمات، ثم قيدوه، وأدخلوه إلى الزنزانة الانفرادية.

أعيد المرضى إلى القسم، ولم يتم معالجة أحد منهم.

إدارة السجن تعلن معاقبة الأسرى لأن أحدهم هاجم الممرض (رجل المخابرات) مع أنه جاسوسها الذي كانت من خلاله تتجسس عليهم.

ارتسمت على وجه مسؤول الأمن ابتسامة.
- إذًا لقد صدق ماهر، وها هو يكفر عن خيانته.
سأله عماد قبل أيام.
- هل تريد تطهير نفسك والعودة إلى شعبك؟
- يا ريت.
- إليك الثمن. قد يقتلونك، وقد يسجنوك عشر سنوات أو أكثر، لكن التكفير عن الذنب لن يكون بالكلمات، بل بالأفعال.
نظر إليه ماهر وقال:
- أنا لها. أنا متشوق للتكفير عن الذنب، وأتمنى في سبيل ذلك الشهادة.
في جلسة المحكمة قال ماهر للقاضي:
- لا أعترف بعدالتكم، فأنتم رمز الظلم والعنصرية في العالم. نعم لقد ضربته، وكنت أنوي قتله تكفيرًا عن خيانتي لشعبي. كنت سعيدًا بالهجوم عليه. أشعر بكل ضربة أنني أكفر عن وشاية من الوشايات التي قدّمتها ضد مناضلي شعبي. لا أطلب رحمتكم، ولكنني أطلب أن يغفر لي أبناء شعبي وأهلي عما قمت به.

(تشرين ثان، 2008)

❖ ❖ ❖

حدث في العيزريّة

انطلقت سيارة الجيب التي تقل عددًا من الجنود الإسرائيليين من موقعها في غربي القدس متوجهة إلى قرية العيزرية القريبة من عاصمة فلسطين المحتلة، في مهمة أمنية بعد وصول أنباء عن وقوع حوادث مظاهرات.

سيارة الجيب وصلت العيزرية، وبدأ تجوب شوارعها الضيقة، بينما أعطى مسؤول الدورية الضابط (يروحام) أوامره للجنود بمراقبة أية تحركات غريبة أو تجمعات مثيرة للشغب.

سائق السيارة (موشي) كان يغني أغنية للمطربة (عوفرة) وهو ينتقل بالسيارة من زقاق إلى آخر.

فجأة اهتزت السيارة وكادت أن تسقط عن الشارع إلى الوادي البعيد بعدما هوى شيء ثقيل على زجاج الجيب فحطمه. السائق (موشي) فقد السيطرة على الجيب فاصطدم الجيب بالحائط.

قفز أحد الجنود من السيارة، وأسرع يركض باتجاه شبح بعيد، كاد أن يختفي وهو ينتقل من زقاق لآخر، والجندي (زئيف) يركض خلفه حتى أمسكه بعدما أنهك من التعب. نظر الجندي في وجه الشخص فإذا به طفل لم يتجاوز الثالثة عشرة، رغم أن طوله يوحي غير ذلك. أمسك الجندي برأس الطفل حسن، وبدأ يكيل له اللكمات، ثم جرّه معه لقائد الدورية (يروحام) قائلاً:

- هذا هو المخرب مار يروحام.

نظر الضابط إلى الطفل حسن، ثم صوب بندقيته نحوه قائلاً:

ـ الآن سوف تموت، ولن ترى أمك ولا أباك، إلا إذا اعترفت عمّن اشترك معك في ضرب الدورية بالحجارة.

خاف حسن، وتساقطت الدموع من عينيه، خصوصاً عندما اقترب منه وهو ينظر إليه بغضب.

ـ طيب.. سأحكي.. إنه.. مصطفى.

ـ وأين يسكن؟

ـ في المكان الفلاني..

انطلق الجنود ومعهم حسن إلى بيت المتهم الخطير، وبينما هم في طريقهم، كان (يروحام) مسروراً أنه سوف يقدم لقائده متهمًا خطيرًا يحرض الأطفال على ضرب جيش الدفاع الإسرائيلي، وقال في نفسه (لعل ذلك يساهم في ترقيتي إلى رتبة عسكرية أعلى)، وبينما هو يفكر في ذلك حتى وصلوا إلى بيت مصطفى.

أصدر (يروحام) أوامره إلى الجنود بالاستعداد، وتم توزيعهم حول البيت، وعندما حرك القائد يده، بدأ الجنود مرة واحدة بالطرق على الباب والشبابيك بطريقة تثير الرعب والهلع في سكانه، مع أنهم كانوا قادرين على استعمال جرس البيت، ولن يتوانى أحد عن الرد عليهم.

فتح أبو مصطفى الباب ففاجأه الجنود مصوبين البنادق إلى صدره.

قال يروحام: نريد تفتيش البيت.

دخل الجنود يتفقدون أهل البيت حيث تم تجميعهم في غرفة واحدة. نظر يروحام إلى الوالد، وسأله:

- أين مصطفى؟

فأشار إلى ابنه الأصغر، ثم سألهم:

- لماذا تسألون عن مصطفى؟

لم يصدق ما سمع، فطلب بإحضار حسن من السيارة، وسأله أمام الجميع:

- أين مصطفى؟

فأشار إليه. فأعاد السؤال ثانية لحسن:

- هذا مصطفى الذي ضرب معك الحجارة على الجيش؟!

نعم، ثم بكى.

اقترب (يروحام) من الطفل، ودقق النظر في وجهه؛ طفل لا يزيد عمره عن ثماني سنوات.

- هل أعتقله؟ وماذا سيقولون عني في مقر القيادة؟ هل أقبل أن أقف في المحكمة لأشهد أمام القاضي أن هذا الطفل هو الذي جعلنا نعيش لحظات من الرعب هذا اليوم؟

رفع (يروحام) عينيه عن وجه الطفل المرتعب وتطلع إلى جنوده الذين كانت وجوههم تعبر عن الاستغراب، ثم نظر إلى والد مصطفى قائلاً:

- هذه المرة سلمت الجرة!

ثم أمر جنوده بالانصراف، ومعهم المتهم حسن متوجهين إلى مركز الجيش، وبعضهم يقول في مخيلته:
إن شعبًا هؤلاء أطفاله، شعب يستحق الحياة.

(٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

زرّي مقطوع

كان موعده معنا يوميًّا بعد العصر، ما عدا يوم السبت، لأنه عيدهم الرسمي.

شكله كان يوحي بأنه مجرم؛ على الرغم من الملابس البيضاء التي كان يرتديها. ربما كان رئيس عصابة قبل أن يعيّن ممرضًا في السجن. أصله من روسيا، ورأسه كبير الحجم، ويلبس طاقية صغيرة على رأسه تسمى (كُفْعَا).

كل يوم بعد العصر نراه يأتي يجرّ أمامه عربة صغيرة فيها أكثر من عشرين علبة للدواء، وكل علبة عليها أرقام لا يعرف سرّها سواه.

يمر على غرف السجن واحدة تلو الأخرى. يسأل الأسرى من خلف القضبان إن كان أحدهم مريضًا، فيتسابق المرضى، وما أكثرهم، إلى باب الغرفة المغلق والمصنوع من قضبان الحديد يشكُون حالهم، فيعطي كلاً منهم حبة أو حبتين، ويطلب من الأسير المريض أن يشربها فورًا دون أن يعرف أي منا ما هي تلك الحبة التي يقدمها لنا كعلاج.

لم يكن يجيد العربية، وربما كان يوهمنا بذلك حتى يتسمع ما نتحدث عنه، فكان بعضنا يترجم لبعضنا الآخر ما يشكُون منه إليه باللغة العبرية، والتي يبدو أنه لم يكن يجيدها، ولكنه رغم ذلك يصر أن نخاطبه بها، فهو يعدّ نفسه يهوديًّا إسرائيليًّا، ولم يعد يشعر بأي ارتباط لبلده الأصلي.

بعضنا كان يشفى بعد أيام، وآخرون لم تكن الحبات لهم سوى مسكن للألم، ورغم ذلك كان يصر أن يعطينا الحبات نفسها كل يوم.

كان يستمع لما نشكوه من أمراض. يفكر بعض الوقت، أو يوهمنا بذلك، ثم يفتح إحدى العبوات (العلب)، ويقدم للمريض الحبة المناسبة، فيما يقدم للآخر حبة أخرى من علبة أخرى.

ما كان يثير دهشتنا أن حبات الأدوية كانت كلها تتشابه على الرغم من أنها من علب مختلفة.

أثار ذلك فضولنا، فبدأ كل منا يسجل رقم العلبة التي أعطاه الحبة منها، وفي اليوم التالي كم كانت دهشتنا كبيرة عندما عرفنا أنه يعطينا الحبة من علبة مختلفة.

في أحد المرات شكا له الأسير عدنان وجع رأسه، وقبل أن يترجم له أحد أعطاه على الفور حبة من الحبوب الذي تعودنا عليه، قلنا لعله بعد هذه المدة الطويلة أصبح يعرف أمراضنا، وتعلّم بعض الكلمات العربية منا، وربما كان لا يفهم شيئًا، وليس بممرض أصلاً. من يدري ربما كان سجانًا بلباس ممرض؟ أو محققًا يأتي من قسم التحقيق الذي يبعد عن غرفتنا بالمسكوبية في القدس عشرة أمتار، وقد تكون كل تلك العلب معبأة بالحبات ذاتها.

انتظرناه في اليوم التالي. وقفنا قرب باب الغرفة، وما أن وصل إلى باب غرفتنا حتى قال له أولنا باللغة العربية:

بطني يؤلمني. وأشار إلى بطنه، فأعطاه حبة من إحدى العلب.

قال الثاني:

- زرّي مقطوع. (زر القميص)

فهز رأسه، وأعطاه حبة أخرى من علبة ثانية.

جاء الثالث وقال له:

- بنطلوني ساحل.

فكّر قليلاً، حتى كدنا نشك أنه فهم أن صديقنا يسخر منه، ولكننا فوجئنا أخيرًا أنه أعطاه حبة من إحدى العلب الكثيرة التي تملأ عربته الصغيرة، فقال له الأسير:

- ولكن حبة لا تنفع لتسحبه للأعلى، فأعطاه الممرض بدون تردد حبة ثانية، ثم تابع سيره للغرفة الأخرى.

(حزيران- يوليو 2006)

❖ ❖ ❖

شعبان وصابر

شعبان ولد صغير. تلميذ مدرسة شقي لدية الكثير من الأصحاب. عمره (١٢) سنة. ينتمي إلى عائلة فقيرة. كان يسكن في العام (١٩٦٥) مع أهله في باب السلسلة، في القدس القديمة، وكان يتعلم في المدرسة البكرية التي تقع بالقرب من باب الأسباط وقرب أحد المداخل للمسجد الأقصى المبارك.

لشعبان صديق أقل عمرًا منه (١٠ سنوات) يدعى صابر يسكن قريبًا من بيته في منطقة تسمى درج الطابون، لها مدخل من الجهة العلوية لباب السلسلة، ويقع في مدخلها مخبز الأمانة المملوك لعائلة سنقرط الذي كان أحد المخابز الرئيسة لسكان القدس.

كان صابر طالبًا في المدرسة نفسها، وكان يذهب إليها مشيًا على الأقدام مع شعبان، حيث يتوجهان إلى الحرم الشريف الكائن في آخر باب السلسلة من الأسفل، ومن هناك يدخلان الحرم متجهين إلى الباب المقابل؛ باب المدرسة البكرية، وهي مسافة خمس دقائق سيرًا على الأقدام، ولكنهما أحيانًا عندما يغادران البيت مبكرًا، يتوجهان إلى المدرسة عبر الشوارع العادية ليمضيا الوقت متسكعين في الشوارع، مراقبين حركة الناس، والبسطات، وباعة الجرائد.

في أحد أيام شهر آذار (١٩٦٥) كان شعبان وصابر عائدين من المدرسة عن طريق باب خان الزيت وسوق العطارين المكتظ بالناس، وكانا يتجولان مستمتعين بالعدد الهائل من الناس. فجأة

لمحا طفلاً قريبًا من عمر شعبان يحمل كيسًا صغيرًا لا يعرفان ما فيه. اقتربا منه، وسأله شعبان:

- ماذا تحمل في الكيس؟

- هدايا لأمي لمناسبة عيد الأم الذي يصادف بعد أيام.

- عيد الأم؟!

نظر شعبان إلى صابر مستغربًا، فلم يكن شعبان ولا صابر يعرفان عيد الأم، ولا عيد ميلاد. كل ما كانا يعرفانه عيد الفطر، وعيد الأضحى، حيث يأخذ الواحد منهما قرشين من أبيه وبعض القروش الأخرى من بعض أقاربهما، فيصرفانها على الألعاب والملاهي التي كانت تقام قرب باب الأسباط، والتي أصبحت الآن مكانًا لوقوف السيارات.

سأل شعبان صابر:

- عيد الأم، هل اشتريت لأمك شيئًا؟

- لا طبعًا؟ ماذا يعني عيد الأم؟

تركا الولد في حاله، وهمس شعبان في أذن صابر، واتفقا على خطة.

لحقا بالولد في وسط سوق العطارين الضيق، وسألاه أن يريهما الهدايا لأنهما سيشتريان مثلها. وقف الولد. فتح الكيس وكان به محفظة نقود نسائية مع مرآة، وفرشاة شعر جميلة، خطف صابر الكيس ورماه إلى شعبان حسب الاتفاق، فهرب شعبان بالكيس. فوجئ الولد بذلك، ولحق بشعبان لاستعادة الهدايا.

في هذا الوقت هرب صابر من الاتجاه الآخر لسوق العطارين باتجاه حي القرمي، وإلى باب السلسلة، فدرج الطابون، وهناك انتظر شعبان حسب اتفاقه معه، أما شعبان فكان سريعًا في الركض، فقد دخل إلى سوق اللحامين، ومن هناك إلى سوق الحصر، وثم إلى حارة الشرف، ثم إلى المدخل المؤدي إلى حوش الغزلان، ثم توجه من هناك عبر حوش الشاي إلى درج الطابون. كان صابر ينتظره، وما أن رآه حتى ابتسم للغنيمة التي حصلا عليها.

الآن بإمكان كل منهما تقديم هدية لأمه في عيد الأم.

عند تقسيم الهديتين بينهما اختلفا؛ فكل منهما يريد محفظة النقود. تشاجرا، فقد ادعى كل منهما أنه الأحق بها لأنه الأجدر. شعبان قال له إنه صاحب الفكرة، أما صابر فقال إنه هو الذي خطفها من الولد.

بعد خلاف طويل اقترح عليه شعبان أن يحتكما إلى عابر طريق فوافقا.

مر شاب يكبرهما كثيرًا في السن، فرأيا فيه حَكمًا مناسبًا. قالا له إنهما مختلفان على توزيع الهديتين، وطلبا رأيه في التوزيع. لم يوضحا له أنهما سرقاها. فكر الشاب، واقترح عليهما حلاً مناسبًا؛ قال لهما:

ـ أغمضا عيونكما، وسأخبئ كل هدية في يد خلف ظهري، ولا تفتحا عيونكما حتى أنتهي من ذلك، بعد ذلك كل واحد يأخذ الهدية التي تكون في اليد التي يطلبها.

ـ وماذا لو طلبنا اليد نفسها؟ سأل شعبان.

ـ نعيد القسمة من جديد.

وافقا، فقال لهما:

ـ أغمضا عيونكما، ولا تفتحاها حتى أنتهي من العد للعشرة.

صمت، ثم قال:

ـ ليبدأ صابر بالعدد، لكن لا تسرع.

ـ بدأ صابر بالعدد؛ واحد، اثنان، ثلاثة...

عندما وصل صابر رقم خمسة كان شعبان يحاول الغش حيث فتح إحدى عينيه قليلاً، ففوجئ أن الشاب اختفى! فتح عينيه كاملاً بسرعة، فلم ير سوى صابر يعد، صرخ بصابر:

ـ هرب الحرامي مع الهدايا، الحق.

لحقاه باتجاه السوق، فلم يعثرا على أثر له.

بدأ صابر يلوم شعبان:

ـ أنت السبب؛ لولاك لما حصل ذلك. لو قبلت بالقسمة كما اقترحتها عليك لما ضاعت الهديتان.

ـ بل أنت السبب؛ لو قبلت برأيي لما سرق الشاب الهدايا.

وبينما هما يتعاتبان بالقرب من الحلاق زغلول المقابل لبسطة (أبو زكي) للخردوات، والتي كانت قائمة على مدخل طريق

الهكاري، إذا بالولد الذي سرقا منه الهديتين يظهر لهما ومعه أبوه، فأشار الولد إليهما، وقبل أن يستطيعا الهرب، أمسك الأب بجلابيبهما وبدأ يضربهما.

- أين الهدية يا كلاب؟ أليس عيبًا أن تسرقا الهدايا؟ ألم يعلمكما أهلكما الأمانة؟

التم بعض المارة لحل الخلاف، فيما تدخل أبو زكي الذي يعرف الولدين لأنهما من حارته، وحاول تسوية الخلاف وتعهد لوالد الولد بأن يحصل ثمن الهدايا المسروقة من أهل شعبان وصابر ويدفعها له تعويضًا عما حصل.

ترك الوالد صابر وشعبان، وعاد كل منهما إلى بيته يجر أذيال الخيبة والفشل.

عاد والد صابر مساء إلى البيت، وقد عرف من (أبو زكي) حكاية صابر وسرقة الهدايا، وما إن وصل حتى صرخ بابنه:

- أين الهدايا يا حمار؟

شرح صابر لأبيه ما حصل، ولام شعبان على ذلك، فصفعه أبوه على وجهه، وقال له غاضبًا:

- منذ متى تعلمت السرقة؟

احتمى صابر بأمه التي حاولت تهدئة الموقف، ولكن الأب الغاضب لم يكتف بذلك، فخلع حزامه من بنطلونه وبدأ يضرب صابر الذي بدأ يصرخ من الألم، ويحلف الأيمان أنه لن يعيدها.

نام صابر متألمًا من سياط أبيه، لاعنًا شعبان، وكل ولد اسمه شعبان.
في اليوم التالي، كان صابر يتناول الساندويتش الذي أعدته له أمه في استراحة الساعة العاشرة وهو جالس منزويًا في إحدى الزوايا، فإذا بشعبان يطل عليه، وما أن اقترب منه حتى بادره صابر:

- انصرف عني.. يكفي ما حصل لي بسببك.

ضحك شعبان، وقال له:

- هل ضربك أبوك؟
- لولا أمي لمتّ بين يديه. ألم يضربك أبوك؟
- تعودت على الضرب؛ كل أسبوع يضربني. لم أعد أحس شيئًا، ما رأيك...

قاطعه صابر:

- لا تكمل.. لا أريد أن أسمع شيئًا منك.
- طيب.. خلص. لن أتكلم شيئًا. أعطني نصف الساندويتش الذي معك، فقد حرمني أبي من الفطور هذا الصباح، ولم يعطني المصروف اليوم. جوعان يا صابر.

رفض صابر ذلك. تغير وجه شعبان، فلم يتوقع من صديقه ذلك. نزلت دموعه على خديه، ومشى تاركًا صابر لوحده.
حزن صابر على شعبان، ورقّ قلبه عليه، فلا بد أنه جائع. صابر يعرف معنى الجوع، فقد جربه كثيرًا. لطالما ذهب إلى

المدرسة لا يحمل معه أي شيء، وكان ينظر إلى الطلاب الآخرين متمنيًا أن يقدّم أحد إليه ولو لقمة صغيرة تسكت جوعه. لحق صابر بشعبان وناداه:

- شعبان.. شعبان.

نظر شعبان إلى صابر فرآه يقسم الساندويتش بينهما ويقدم له نصفه. توقف شعبان عن البكاء، وبدأ يجفف دموعه بكم قميصه. اقترب كل منهما من الآخر. أمسك شعبان بنصف الساندويتش بيده. نظر إلى صابر وهجم عليه يعانقه كالكبار، ثم سارا معًا يلتهمان ساندويتش الزعتر والزيت بنهم شديد.

❖ ❖ ❖

شهيداً عند ربِّه

لاحظ بعض شباب الانتفاضة شابًّا يظهر لهم من بعيد يحمل جهاز إرسال (لاسلكي)، يشبه ذلك المستخدم لدى أجهزة الشرطة والجيش. لم تكن الهواتف النقالة قد ظهرت في فلسطين. تشاور شبان الانتفاضة، وقرروا ملاحقة ذلك الشاب لأنه يتجسس عليهم.

اختبأ بعضهم في أحد الأزقة، وانتظروا مروره من هناك، ثم أطلقوا عليه النار، وقبل انسحابهم سرقوا منه جهاز الإرسال ليعلنوا بعد ذلك عن نجاحهم في اصطياد أحد الجواسيس الذي كان يلاحقهم.

جلس الشبان المنتفضون في أحد البيوت يتفقدون ذلك الجهاز الذي حصلوا عليه. شعروا بنشوة النصر لأنهم انتصروا على المخابرات الإسرائيلية. حاولوا استخدام اللاسلكي للتمويه على المخابرات الإسرائيلية، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونه.

ظلوا يحركون أزراره ويضغطون عليه حتى سمعوا صوتًا قادمًا من بين ثقوبه السفلية:

- ألو.. ألو كابتن سليمان معك حوّل..

صمتوا، ولم يرد أحد منهم. بعد ثوان عاد الصوت نفسه يقول:

- ألو.. ألو كابتن سليمان معك حوّل..

صمت طويل. فجأة سمعوا الصوت يقول:

- ألو ناصر أين أنت؟ حوّل.

مسك أحد الشبان الجهاز، غير صوته ثم رد على الصوت القادم.
- ناصر مات حوّل. ناصر قتلته الانتفاضة حوّل.
فجأة قال لهم المتحدث نفسه:
- من أنت؟ من المتحدث؟ أين ناصر؟
- قلت لك قتلته الانتفاضة.
- يا كلب. يا حمار. أين ناصر؟
- لقد قتلناه أيها الجاسوس.
- جاسوس أنت وأهلك. جاسوس يا ابن الشرموطة.
أغلق المنتفضون الجهاز وهم يفركون أيديهم فرحًا لنجاحهم في إخافة الجاسوس الثاني.

اكتشف المارة جثه ناصر ملقاة على الأرض، وعندما وصل الخبر إلى أبيه جن جنونه. لقد قتله اليهود، ولكنه فوجئ في اليوم التالي ببيان يوزع في البلد بأن الانتفاضة قد قتلت أحد الجواسيس (ناصر) الذي كان يلاحق شبان الانتفاضة.
أُصيب أبوه بحالة هستيرية. ذهب على الفور إلى بيت أحد أصدقاء ابنه (ابن جاره أحمد). سأله عن آخر مرة كان فيها مع ابنه فقال له: كنت ألعب معه يوم أمس حينما اختفى...
وشرح له ماذا حصل عندما أراد الحديث معه عبر جهاز الإرسال. مسك الأب جهاز الإرسال. نظر إليه. ضغط على زر الإرسال وبدأ ينادي:

- ألو.. ألو.. هل تسمعني؟
كرر المحاولة عدة مرات. فجأة سمع ردًّا غير واضح، فقال لهم:
- ألو.. أنا أبو ناصر من أنتم؟
- أنت أبو ناصر. عوضك على الله. لقد قتلناه لأنه يتجسس علينا. بلّغ المسؤولين اليهود أصحابك بذلك.
- قتلتموه لأنه جاسوس؟ كيف عرفتم أنه جاسوس؟ ألا تعرفون أن عمره ١٥ سنه فقط؟
- لقد ضبطنا معه جهازًا لاسلكيًّا كان يتصل به مع المخابرات الصهيونية.
- لا سلكي؟ أي لا سلكي يا حمير؟! هذا الجهاز الذي معكم هو لعبة (ووكي توكي) اشتراه له عمه من أمريكا. حرام عليكم ترتكبون الجرائم باسم الوطن. تتهمونه بالجاسوسية. هل حققتم معه؟ من أنتم؟ تعالوا أروني وجوهكم.
وبدأ يبكي.
مسك جاره الجهاز وبدأ ينادي عليهم:
- يا شباب ما قمتم به جريمة. لقد قتلتم شابًّا بريئًا. عليكم تبليغ مسؤوليكم بجريمتكم، وأغلق الجهاز.
ارتبك المنتفضون، ولم يصدقوا ما سمعوه. نظروا إلى الجهاز وأغلقوه. آخر شيء توقعوه أن يكون الجهاز لعبة.
طفل يقتل بسبب لعبة تعمل على بطارية.

وصلت الأخبار إلى مسؤول القدس في منظمة التحرير فيصل الحسيني الذي هزه الخبر، فتحرك بوفد من وجهاء البلد ورجال الدين إلى بيت أهل ناصر يقدم العزاء، ويعلن عن أسفه لهذا الحادث المؤلم.

أحد المسؤولين في الوفد أكد لوالد الطفل أن الجناة سيعاقبون، وأنه يعد ابنهم شهيد الوطن والانتفاضة.

كان والده حزينًا. أكثر ما كان يؤلمه اتهام ابنه بالتجسس. قدّم للوفد جهاز الإرسال الثاني، وشرح لهم ما حصل.

تقدم السيد فيصل وقدم لأهل الشهيد مبلغًا من المال كفدية (دية).

رفض الوالد دية ناصر. قال لهم بغضب:

- ابني ليس للبيع.

- لا تفهمنا خطأ. الدية جائزة في الإسلام.

نظر إليهم والدموع تنهمر من عينيه.

- الشهداء لا دية لهم، وقد احتسبته شهيدًا عند ربه.. شهيدًا عند ربه.

(تموز ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

لماذا يا رفيق؟

أعرف أنك كنت على خلاف مع الحزب، وأنك اعترضت على تصرفات قيادته، واتهمتها باتهامات كثيرة منها البيروقراطية والفردية، ومن يدري فقد تكون محقًّا في كلامك، وقد أيّدك كثيرون، وتبنوا وجهة نظرك، وطلبوا بإصلاحات جذرية داخل صفوف الحزب، لكن القيادة العليا أصمت آذانها، ولم تستجب لشيء من مطالبكم، ولو أنك أعلنت استقالتك من الحزب، أو تمردت عليه، لتفهم كثيرون موقفك، ولم يعتبوا عليك، وربما لو تخليت عن النضال كله، وهاجرت من فلسطين إلى بلاد الغربة، كما فعل كثيرون غيرك، لوجدت من يتفهمك، ولكنك قمت بممارسات لم يجد أحد تفسيرًا لها سوى...

أأكون قاسيًا عليك لو قلتها؟ هل أظلمك؟ كيف تسول لك نفسك أن تفعلها؟

أكثر من عشر سنوات في درب الكفاح كنت خلالها أحد الكوادر الوطنية التي يعتز بها أهل الشمال؛ شمال فلسطين، وطاردك جيش الاحتلال في أزقتها. أعترف أنك كنت رمزًا نضاليًّا وقف أمام محقّقيه بصلابة وجرأة، وصان شرف الحزب، والوطن، ولهذا كنت أحد قيادة الحزب في الداخل. لقد وثق بك الناس كرمز وطني ضحى وقدم خيرة سنوات عمره مطاردًا وخلف القضبان، وعندما قررت في لحظة من اللحظات أن تمارس التجارة لتبني لك مستقبلاً كما الآخرين، خصوصًا بعد أن هرول أبطال الثورة نحو (أوسلو)، شجعك الآخرون على ذلك.

كنت تعلم أن أصحاب المال لن يدعموك، ولن يشاركوك، فأنت محسوب على اليسار، والتجار محسوبون عمومًا على اليمين، فخطرت لك فكرة جمع مبلغ من المال من زملائك كمستثمرين، وافتتاح مشروع كبير تقوم أنت بإدارته، وبالفعل استطعت أن تجمع أكثر مما توقعت، فالثقة التي منحك إياها الناس كانت كبيرة؛ ثقة بنيتها عبر السنوات، ولم تأت ثمرة يوم، أو شهر، أو سنة. لماذا لم تفتح المشروع؟ ما الذي منعك أن تبدأ؟
قلة الخبرة؟ الخوف من الشغل؟ فلماذا بدأت إذًا؟ لماذا فكرت بذلك؟

ما الذي فعلته في ذلك اليوم حينما بحث عنك الأصدقاء والرفاق فلم يعثروا لك على أثر؟ كانوا يعتقدون أن جيش الاحتلال أسرك كما أسرك في السابق، وأنك الآن خلف القضبان من جديد.
كان رفاقك الذين قدموا لك مدخراتهم لتستثمرها لهم جاهزين ليسامحوك بالمال الذي قد يكون الجيش صادره منك. كلهم قالوا: فداك المال يا رفيق. لكنهم فوجئوا، بل أصيبوا بدهشة، ولم يصدقوا. حسبوا أنهم في حلم! لا.. لا يمكن أن يفعلها الرفيق. كانوا في حالة ذهول. انتشر الخبر في فلسطين كلها. كل الحركة الوطنية بدأت تتهكم عليك وعلى الحزب. الناس العاديون بدؤوا يسخرون من مناضلين يمكن أن يتخلوا عن مبادئهم بهذه السرعة.

هل تذكر ليلة هجرتك من الوطن؟ لم تخبر أحدًا بمقصدك. حملت بعض ملابسك، وغادرت دون أن تودع أحدًا. كنت مثل المطارد الذي لا يريد أن يراه أحد. غادرت مدينتك التي أحببتها وعشقتها حتى النخاع في الصباح الباكر قبل الفجر بقليل. خرجت متخفيًّا. كنت حريصًا على ألا ينتبه لك أحد من الجيران. طلبت من زوجتك وأولادك الصمت وعدم الحديث حتى تبتعد السيارة عن الحي الذي تسكن فيه.

تلك الليلة ذكرتك بسنوات المطاردة التي كنت فيها مطاردًا من الاحتلال الصهيوني. في تلك الأيام كنت حريصًا ألا يراك جندي إسرائيلي، أو يتعرف إليك جاسوس يعمل لحساب إسرائيل. كنت تنتقل من مكان إلى مكان فخورًا بإنجازاتك ومطاردة الاحتلال إليك، أما تلك الليلة التي هاجرت فيها الوطن، فقد كنت حريصًا ألا يراك جيرانك أو رفاق دربك أو أصدقاؤك. لم يكن يهمك أن يراك جندي أو جاسوس أو مخبر. كان إحساسك مختلفًا جدًّا. لم تشعر أنك قمت بجريمة ستندم عليها، لأنك بتّ مقتنعًا أن ما فعلته كان صحيحًا، لأن غيرك عليه أن يدفع لك فاتورة سنوات خدمتك للوطن. أقنعت نفسك أن ما تحمله من أموال الناس كان مكافأة نهاية الخدمة.

لكن الذي لم تعرفه آنذاك، وعرفته فيما بعد، أن الناس كانوا يعرفون أن التاريخ قدّم أمثلة كثيرة عن مناضلين تخلّوا عن مواقفهم، وغيّروا مفاهيمهم. تنكروا لمعتقداتهم، ولكنهم لم

يحسبوا أن مناضلاً أحبّوه سينقلب عليهم، ويسرق أموالهم، ويهرب من الوطن كله مع أفراد أسرته إلى وطن آخر ليبدأ هناك مشروعه التجاري الخاص بأموال الناس الذين أحبوه وأعطوه ثقتهم.
كانوا يعتقدون أنك تطالب بإصلاحات ديمقراطية، فإذا بك تمارس إصلاحات لصوصية.

أكثر من (١٥) سنة يا رفيق مرت على الحادث، دون أن تستطيع العودة إلى الوطن، لأنك تخاف من ملاحقة الناس الذين ينتظرون عودتك يومًا ما. سمع بعضهم أنك تفكر بإعادة الأموال إلى أصحابها.. حقًّا؟ ماذا عن سنوات استثمارها؟ لا.. لا.. لا يهم الاستثمار. ماذا عن ثقة الناس بك؟ ماذا عن الإحباط الذين زرعته في أذهان أبناء بلدك عن المناضلين؟

اليوم، وبعد ثورة المعلومات على الشبكة العنكبوتية، قررت أن تعود إلى الواجهة، فبدأت تكتب مقالات من وطنك الجديد تنتقد فيها الموقف السياسي الوطني للأحزاب الفلسطينية، وتقترح موقفًا جديدًا ترى فيه مصلحة الشعب والوطن.
كنت تعتقد أن الناس نسيت ما فعلته قبل (١٥) سنة!

بدأت تصلك الرسائل من أصحاب الأموال يطالبون بأموالهم، وتحرك بعضهم لرفع دعاوى قضائية ضدك حيث تعيش الآن، فقررت أن تتوقف عن الكتابة باسمك واستخدام اسم مستعار.

عدت للتخفي من جديد، حتى وأنت في الغربة تعيش متخفيًّا. بدأت الآن تقتنع أنك جنيت على نفسك وتاريخك الوطني، وشعرت بالندم، ولكن ماذا ينفع الندم الآن؟ أنت الآن تاجر كبير في بلد أنت غريب عنه. كبر أولادك دون أن يعرفوا لماذا هاجر أبوهم وأمهم من فلسطين. هل تجرؤ أن تعترف لهم بالحقيقة؟ ماذا لو عرفوها؟ هل ستهرب من الإجابة أم ستبررها؟ ماذا لو سألوا أمهم؟ هل ستجبرها أن تخفي عنهم الحقيقة؟

كأني أسمعك تهمس شيئًا، ماذا تقول؟ أعرف أنك خدمت الوطن والشعب أكثر من عشر سنوات، لتكن عشرين سنة. هل تريد تعويضًا عن سنوات خدمتك؟ هل تريد أن يدفع الناس لك بدل سنوات أسرك؟ أبهذه الطريقة يحصل المناضلون على تقاعدهم؟ ماذا يميزهم إذًا عن المرتزقة؟

❖ ❖ ❖

مترجم إلى السماء

كان حسام يبحث في الجرائد المحلية والعربية في نيويورك عن فرصة عمل مناسبة بعيدًا عن أعين دائرة الهجرة، فهو لم يحصل على بطاقة الإقامة بعد، وما زال يبحث عن فتاة أمريكية مناسبة يستطيع أن يتزوجها ليحقق من خلالها أحلام الشباب، فمنذ أن تغرب عن وطنه قبل سنة وهو يطارد ليل نهار لتأمين مصاريف البلد العالية؛ مائة دولار في نيويورك ليست مثل مائة دولار في بلده الأصلي. الفرق هائل بين البلدين.

فجأة لفت انتباهه إعلان كبير في صفحة كاملة في إحدى الصحف العربية يطالب بمترجمين عرب للعمل براتب مغر مع علاوات ومكافأة لسنوات الخدمة.

- خمسة آلاف دولار شهريًّا؟

إنه راتب مغر جدًّا.

حمل هاتفه النقال واتصل بالرقم.

- ألو أهلاً وسهلاً.

- قرأت إعلانكم حول طلب موظفين للعمل كمترجمين إلى العربية وبالعكس.

سأله المتحدث على الفور:

- هل عمرك أقل من (٣٥) سنة؟

- عمري (٢٥) سنة. خريج لغة إنجليزية وآداب.

- جيد جدًّا. يمكنك التقدم للمقابلة مع مسؤول قسم التوظيف غدًا صباحًا على العنوان التالي...

سأله حسام بعد أن أنهى حديثه: أين سيكون العمل؟
- في البداية سنرسلك إلى العراق.
- إلى العراق؟ لماذا؟ هل هذا مكتب للجيش؟
- لا هذا مكتب ترجمة، ولكننا بحاجة لمترجمين لإرسالهم إلى العراق وإلى أفغانستان للعمل كمترجمين في معسكرات الجيش.
- ولكني لا أحمل بطاقة إقامة أمريكيّة.
- سيساعدك المكتب في الحصول على الإقامة بعد انتهاء مهمتك.
تردد حسام في الموافقة، فقال له الموظف:
- يمكن طرح المزيد من الأسئلة على الموظف المسؤول عن التوظيف، لكن تأكد أن الامتيازات عالية.
- مثل ماذا؟
إذا كنت مواطنًا غير أمريكي الجنسية سيصبح بمقدورك الحصول عليها بعد عودتك من الخدمة، وسيكون بإمكانك الخدمة في مناطق أخرى بما فيها بلدان مختلفة من العالم.
- حسنًا سأكون غدًا حسب الموعد.

فكر حسام في العرض، فهو مغر جدًّا. راتب عال. سأحصل على الجنسية دون زواج ومصاريف لا لزوم لها، وسيكون عملي في مكاتب الجيش، وليس لي علاقة بما يحصل للجنود.
فكّر لثوان ثم قال لنفسه:
- إذا شعرت بثقل المهمة، سأطلب إنهاء خدمتي، أو سأهرب من هناك.

بعد شهر كان حسام في الطائرة المتجهة إلى العراق.
فور وصوله أُدخل مع مجموعة من العاملين مع الجيش الأمريكي القادمين من دول مختلفة مثل الهند، وكمبوديا، وكوريا، والمغرب، والأردن، ومصر، إلى دورة تدريب عسكرية لاستخدام الأسلحة النارية، فسألهم حسام:
- لماذا التدريب؟ أنا جئت أعمل مترجمًا.
فرد عليه الضابط المسؤول:
- أنت الآن تعمل في عهدة الجيش الأمريكي، ويجب عليك المشاركة في التدريب للدفاع عن نفسك، فالإرهابيون هنا نشيطون، ولا يتركون أحدًا، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسك يجب عليك التدرب على استخدام أنواع الأسلحة.
عندما حاول الاحتجاج أفهموه أنه الآن يعمل تحت سلطة الجيش، وعليه التزام الأوامر.
- أمرك سيدي.

بعد انتهاء فترة التدريب، كانت مهمته مرافقة إحدى الدوريات الأمريكية العاملة في إحدى نقاط التفتيش في بغداد. كان يقوم بالترجمة إلى الجنود الأمريكيين ما يقوله المواطنون العراقيون، ويترجم للعراقيين أوامر الجنود وشتائمهم. كان يشعر أنه رأس حربة للطرفين؛ فالمواطنون ينظرون إليه نظرة احتقار بأنه جاسوس لهم، والأمريكيون يرون فيه مترجمًا متضامنًا مع العراقيين.

بعد فترة أصبحوا يتركونه وحيدًا ليقوم بتفتيش المارة، بينما الجنود يجلسون في سياراتهم يراقبون الوضع مصوبين أسلحتهم باتجاه المواطنين. يدهم على الزناد لإطلاق النار على أية محاولة للهرب أو الهجوم على القوات الأمريكية.
لماذا يفعلون به ذلك؟ سأل حسام نفسه: هل هذه مهمة المترجمين؟ لو حصل أي هجوم على أفراد الجيش سأكون أول المستهدفين. ما الذي ستستفيده أمي من ذلك؟
لو عرف أبي ماذا أفعل لهجم علي يضربني.
يبدو أنهم خدعوني. إن مت سيقولون عربي مات في العراق. لا أحد يعرف كيف جئنا، ولا ماذا قيل لنا، ولا ما يجري على الأرض هنا.

عندما قدم لهم الاستقالة. قالوا له: عليك إتمام مدة العقد البالغة ثلاث سنوات حتى يمكنك الاستقالة.
- هل نسيت التعليمات التي وقعتها في المكتب في نيويورك؟ اغرب عن وجهي فورًا.
- أمرك سيدي.
وضرب له سلامًا.

وظيفة حسام لم تكن للترجمة فقط، فأحيانًا كان يعمل سائقًا، وأحيانًا يترجم ما يقول الجنود للمواطنين. بعض الأوقات كان يطلب منه ترجمة ما تقوله الإذاعات السورية، أو ترجمة بعض

الصحف العراقية، وأحيانًا أخرى كان يعمل كناسًا، يقوم بهمة كنس الغرفة وتنظيفها. لم يكن لديه وظيفة ثابتة، فهو وغيره من الموظفين الذين أحضرهم الجيش الأمريكي للعمل معه يقومون بكل شيء. إنهم موظفو الأعمال الخاصة.

في إحدى المرات طلبه الضابط الأمريكي (ماكوي) وقال له:

- اذهب بهذه السيارة إلى سوق الخضار، واشتر لنا بعض المأكولات حسب هذه الورقة وعد بسرعة.

أعطاه المفتاح ومبلغًا من المال وأشار له إلى مكان السيارة.

غادر حسام بالسيارة لابسًا ملابسه المدنية، وذهب إلى سوق الخضار. أوقف السيارة بالقرب من السوق، وذهب يشترى من المحلات في الداخل حسب اللائحة؛ بصل، فلفل أخضر، بندورة...

فجأة رن الهاتف الخلوي الذي يحمله. سأله الضابط ماكوي:

- هل وصلت السوق؟

- نعم سيدي أنا هناك أشتري الأغراض.

فجأة هز انفجار عنيف المنطقة، فتطاير الناس أشلاء وجرحى، أما هو فقد نجا من الموت بأعجوبة.

حاول العودة إلى سيارته للهرب، ولكنه فوجئ أن سيارته هي التي انفجرت، فخاف على نفسه من الناس الغاضبة وقوات الأمن العراقية التي وصلت تعتقل المواطنين الذين تشتبه بهم. اقتربوا منه. رفعوا السلاح عليه، فرفع لهم بطاقة للجيش

الأمريكي مع صورته تفيد أنه يعمل لدى الجيش. أخذوه إلى السيارة. سألوه عما شاهده، فقال لهم:

- لا أستطيع الإدلاء بأية معلومات إلا لدى قوات الجيش التي أعمل معها.

اتصلوا بالجيش الأمريكي، فطلب منهم إطلاق سراحه، وأرسلوا له سائقًا يعيده إلى المعسكر.

الآن عرف حسام لماذا ينشرون دائمًا إعلانات طلب مترجمين (ألا يكفي ما في العراق من مترجمين؟)

كان حسام مذهولاً مما حصل!

كيف انفجرت السيارة؟ هل زرع أحد بها متفجرات بعد أن تركتها؟ هل وضعوا العبوة تحتها؟ ألأنهم عرفوا أنها سيارة للجيش الأمريكي؟ لعن الله المسؤول عن هذا العمل الجبان.

بعد ساعة، كان يستمع لنشرة الأخبار. كانت القوات الأمريكية تتهم قوى تابعة لإيران بتفجير سيارة مفخخة في شارع أكثر رواده من المسلمين السنة، وقد أكد المتحدث باسم الجيش أنه يأسف لذلك، وأن الجيش موجود هناك لمنع حرب أهلية في العراق.

قال له أحد العاملين العرب مع الجيش الأمريكي:

- هؤلاء الشيعة الذين قاموا بهذه المهمة الجبانة. إنهم جماعة إيران. لكن صبرًا لن ينتصروا.إنهم الرافضة.

- عفوًا.. ماذا تقصد بالرافضة؟
- لأنهم يرفضون أوامر الله.
- ومن أين جئت بهذا التحليل؟
- لا تحتاج إلى تحليل. رافضة من رفض يرفض فهم رافضة. يرفضون خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان. إنهم يشتمون زوجة النبي عليه الصلاة والسلام.
- لكن ما الذي يؤكد لك أنهم وراء هذا الانفجار؟ وهل إذا فعلها أحد الشيعة يعني أن كل الشيعة مسؤولون عن جريمته؟ يا أخي حرام أن نصعد في انقسام المجتمع العراقي. أنا شخصيًّا لا أعرف من يقف وراء هذه التفجيرات، ولكني لا أتهم أحدًا.
- أنت تؤيد إيران إذًا، إيراني.
- من قال لك إنني إيراني، أو أؤيد إيران؟

في اليوم التالي جاءه الضابط (ماكوي)، وقال له:
- أنت تحاول الإساءة للجيش الأمريكي وتأييد إيران.
- أنا؟ لم يحصل ذلك.
- هذا آخر إنذار لك، فإن عدت إلى مثل تلك الأعمال ستحال إلى لجنة تحقيق.
- أمرك سيدي.
خرج من المكتب وهو يتمتم:
- لقد وشى بي، يتهم الناس بالتعامل مع إيران وهو يتعامل مع أمريكا.

بعد أسبوعين، طلب منه الضابط (ماكوي) نقل سيارة فيها بعض المعدات الطبية إلى مستشفى قريب، وحدد له الطريق التي يسلكها.

في الطريق اتصل به الضابط وسأله: أين أنت؟

- أنا في طريق مزدحم بالمارة عند الدوار...

قبل أن يتم جملته كانت سيارته قد تطايرت وتطاير معها في الهواء.

قوات عراقية تحاصر المنطقة، وأصوات تصرخ وتصيح:

- يا حسين.. يا حسين.

- فعلها المخربون الصداميون.

بعد قليل، كانت الإذاعات المحلية تعلن أن مخربًا فجّر نفسه في سيارة في شارع يزدحم بالمواطنين الشيعة. إحدى الإذاعات قالت إن جماعة صدام وراء التفجير، فيما قالت أخرى إنهم من مجموعات القاعدة التخريبية ردًّا على انفجار الشهر الماضي في أحد المناطق السنية.

لم ينس متحدث باسم القوات الأمريكية أن يعلن أن قواته تبذل قصارى جهدها من أجل حماية المواطنين وملاحقة المخربين من الجانبين.

سأل الجنرال (مايكلوسكي) الضابط (ماكوي):

- ما قصة المترجم الذي تفجر في السيارة؟ هل كان يتجسس علينا؟

- لا يا سيدي، ولكنه اطلع على أسرار ما كان يجب أن يطلع عليها، وهو دائم الأسئلة، وقد قدّم استقالته احتجاجًا على عمله.

هز رأسه:

- فهمت، وماذا حصل بالضبط؟

قال (ماكوي) مستهزئًا:

- أرسلناه إلى السماء ليترجم إلى أللاه (الله) أوامرنا.

ضحك الجنرال وسأله:

- وهل تعتقد أن رسالتنا وصلت؟

- نعم سيدي.. إن لم يوصلها بلغته سنوصلها بلغتنا.

(تشرين أول ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

محمود و رجال البوسطة

كان الأسرى الفلسطينيون في سجن بئر السبع العام (١٩٨٣) يتذمرون من اعتداءات الجنود الإسرائيليين على رفاقهم المنقولين من السجن إلى سجن آخر، أو للعلاج في مستشفى سجن الرملة الذي يعد المستشفى المركزي لدائرة السجون الإسرائيلية.

لم يعد الأمر محتملاً؛ فكلما عاد أسير من المستشفى يقدّم تقريرًا موسعًا يشكو فيه اعتداء الجنود المكلفين بنقل الأسرى والسجناء من سجن لآخر، وكنا نسميهم برجال البوسطة. بعضهم كان يعود وآثار الضرب والركلات بادية على وجهه.

ضج الأسرى، وسرت همهمات بين كثيرين منهم بأنهم سوف يقاطعون المستشفى حتى توقف إدارة السجن ذئابها الذين يستغلون القيود التي تكبلهم أثناء النقل لينزلوا عليهم بالهراوات والضرب والركل والبصق، حتى لا يعود الأسير قادرًا على السير. إنهم ينتقمون منه في كل مرة يسافر فيها أحدهم حتى أصبح يكره السفر.

لم يكفهم أسرنا ومضايقتنا في السجن، وها هم ينتقمون منا أثناء سفرنا من سجن إلى سجن آخر، وفي كل مرة يستخدمون أساليب جديدة في تعذيبنا، كأنهم يمارسون علينا ساديتهم التي ورثوها عن أجدادهم الأولين.

- لن أذهب للمستشفى. قال أحد الأسرى المحكوم عليه بالسجن أربع سنوات، فما فائدة السفر للمستشفى للعلاج من مرض لأعود بعده مصابًا بمرض آخر.
- أنا أرى أن نحتج ونتخذ خطوات تصعيدية مع الإدارة حتى لو أدى الوضع للإضراب عن الطعام. رد عليه أسير ثان.
- علينا أن نواجه السجانين في البوسطة حتى لو كنا مقيدين.
- لكن كيف ونحن مقيدون كل أسيرين بقيد مشترك، وليس دائمًا يكون المسافرون كثيري العدد، فأحيانًا يكون المسافر أو المنقول أسيرًا واحدًا أو اثنين، لا حول لهما ولا قوة، ومعهم في السيارة سجناء يهود ينقلونهم معنا من الأقسام الأخرى.

بعد أسبوع رجع مع البوسطة أسير مضى على اعتقاله عشر سنوات. عندما دخل للسجن كان منظره يوحي بأن اعتداءً كبيرًا تم عليه. سأله أحد الإخوة بعد أن سلم عليه:
- ما الذي حصل؟
- اعتدى علي رجال البوسطة.
- كيف حصل ذلك؟
- في الطريق توقفوا في منطقة خالية لا يوجد فيها سيارات ولا إنس ولا جان، كأننا في صحراء، وفجأة فتح باب البوسطة. نظر إلى السجان (روني)، تعرفه، الرجل الطويل الأشقر، فناداني وقال لي تعال انزل، وعندما نزلت، وكنت مقيد اليدين والرجلين، هجم علي هو وزملاؤه السجانون ضربًا وركلاً

بيديهم وأرجلهم وعصيهم، حتى لم أعد قادرًا على الحديث أو حتى الصراخ، فحملوني ورموني في البوسطة التي كان بها عدة سجناء يهود. كان اليهود يضحكون عندما كنت أتعرض للضرب من الجنود، حيث كانوا يتفرجون علي من شباك شاحنة النقل، بل كانوا يشجعونهم على ضربنا قائلين لهم:

- تهرجوتو، زي حبلان جدول، بن زونا. (اقتلوه فهو مخرب كبير وابن زانية).

وعندما أعادوني إلى البوسطة، حاولوا أن يستأنفوا ما بدأه الجنود، فقال لهم الجنود: يكفيه هذه المرة، وفي العودة من المستشفى سنتركه لكم لتتسلوا عليه.

وهذا ما حصل؛ ففي العودة تركوا بعض السجناء اليهود من العالم السفلي يعتدون علينا، وقدّموا لهم التسهيلات لذلك. وها أنذا عدت لا أقوى على الحركة. على ممثل المعتقل من طرفنا أن يحتج للإدارة الصهيونية.

تقدّم أسير كان قد أصيب في ساقه في اشتباك مع الجنود قبل أسره أصبح على أثرها أعرج، وتم تركيب عمود من البلاتين في ساقه ليستطيع السير، وبعد لحظة صمت قصيرة قال لمسؤول التنظيم المسؤول عنه إنه يريد التسجيل للمستشفى.

سأله المسؤول:

- لكنك لست مريضًا يا محمود!

- أريد أن أنتقم من هؤلاء السجانين.

- ولكن ذلك مسؤولية السجن كله، وليس أنت لوحدك.
- حسنًا.. لكني أرى أنني أهل لهذه المهمة.
- لماذا لا تنتظر حتى ننهي تلك المسألة مع الإدارة حتى لا يحصل معك ما حصل. ضحك، ثم قال:
- حسنًا.. لكنك تعرف أن الإدارة أصلاً تنقل المرضى للمستشفى بعد شهر أو شهرين من موعد التسجيل، بعد أن يكون الأسير قد مات أو استفحل به المرض، فإن حلت المسألة أسحب التسجيل.
- لكنهم جنود سفل مدججون بالسلاح، وأنت لا تستطيع أن تواجه كل ذلك لوحدك.
- اتركني وسترى.
- حسنًا.. لكن دعنا نسجل معك عدة أشخاص حتى لا تكون وحدك في البوسطة، فقد يقتلوك انتقامًا، ويقولون إنك هربت.
- اتفقنا.

ظل يحلم بيوم السفر إلى المستشفى. سيكون يوم الانتقام والرد على هؤلاء القتلة.

لم يكفهم اغتصاب بلادنا، لكنهم يعذبونا بكل الطرق. ليس في قلوبهم الرحمة، ولو أن ابتسامتهم أحيانًا تحاول أن توحي لك عكس ذلك.

ضرب الأسرى ممنوع بكل القوانين فلماذا يمارسونه ضدنا.

حان موعد السفر. نادى السجان المسؤول في مكبرات الصوت أسماء الأشخاص المنقولين إلى المستشفى في صبيحة اليوم الذي يليه، فعادة يتم تبليغ المسافرين قبل موعد السفر بيوم ليحضروا أنفسهم.

استيقظ محمود في الصباح الباكر حوالي الساعة السادسة. هيأ نفسه، وجهز ملابسه وأغراضه في كيس من الخيش، وعند السادسة والنصف حضر أحد السجانين ونادى عليهم بالاسم واحدًا واحدًا، وأخذهم معه بعد أن قيدهم بالكلبشات، وسار بهم من قسم إلى قسم حتى صاروا خارج البناية أمام سيارة البوسطة، وكل منهم يحمل في يده كيسًا فيه بعض الغيارات خلال السفر.

يعرف محمود أن عادة السجانين يربطون كل أسيرين بقيد واحد، الرجل اليمنى لأحدهم مع الرجل اليسرى للآخر، واليد اليمنى مع اليد اليسرى للآخر، وفي اليد الأخرى يحمل كل منهما كيس ملابسه وغياراته... الخ، قال في نفسه:

- ساعة الحسم اقتربت.

اقترب السجانون، وفتشوا كل سجين على انفراد، وتأكدوا أن كل شيء على ما يرام. جاء دور محمود، وبعد أن فتشوه، نظروا في عينيه نظرة تحد، فأشاح بوجهه عنهم. قال في نفسه: لم تحن ساعة المواجهة.

- كل شيء جاهز. قال السجانون للمسؤول.

- حسنًا.. قيدوهم.

بدؤوا بتقييدهم كل اثنين معًا. حرص محمود أن تقيد يده ورجله اليسرى لأنه أعرج، ويفضل أن تكون اليمنى حرة لتساعده إن احتاج شيئًا، فوافق شريكه في القيد، وما أن وضع القيد في يديهما ورجليهما حتى نقل محمود كيس الملابس الخاص به لليد اليسرى المقيدة.

صرخ مسؤول سيارة البوسطة بعد انتهاء تقييد الأسرى وأمرهم أن يصعدوا اثنين اثنين للسيارة. كان السجانون يقفون على باب البوسطة، ينظرون بتعال وتحدّ إلى الأسرى. اقترب دور محمود وشريكه، فقد كان وزميله الأخيرين. رفع يده اليمنى بوضع طبيعي وحك رأسه، ثم رويدًا نزل بيده على وجهه. بدأ يعدل حواجبه، ثم أنفه، ثم فمه، وما أن وصل إلى الجندي حتى ضربه بكل قوته في وجهه بشفرة حادة صغيرة كان قد وضعها في فمه وانتزعها بسرعة البرق في تلك اللحظة، ولم يتوقف، بل استمر يضرب السجان ضربات سريعة، لعلها أسرع من لمح البصر. وجه السجان بدأ ينز دمًا من كل مكان، وبدأ يصرخ من الألم قبل أن يهجم السجانون على محمود ويلقوه أرضًا، ثم يلقون القبض عليه ليذيقوه العذاب قبل أن ينقلوه إلى الزنزانة.

صرخ المسؤول عن السجن:

- من هذا؟

- إنه محمود أبو النصر من غزة يا سيدي.
- مخمود؟ (لفظها بالخاء كما يفعل اليهود)، الأعرج؟
- نعم سيدي.
- يا إلهي وماذا كنتم تفعلون؟ لم يتوقع مدير السجن أن أسيرًا أعرج قصير القامة، يفعل ما فعله.

مدير السجن يستدعي مسؤول الأسرى بغضب، ويعلمه أن سيارة البوسطة قد ألغيت اليوم، لأن الأسير محمود اعتدى على السجان، وقال له :

- لقد تماديتم بالاعتداء على السجان، وبإمكاني أن أعاقبكم كلكم، فلا شك أنكم أنتم من أمره بذلك. لقد قررنا حبس كل الأسرى المنقولين في الزنزانة، حتى تقرر إدارة السجون شيئًا آخر.
- تعلمون أننا قدمنا لكم شكاوى كثيرة حول ممارسات رجال البوسطة، ولكنكم لم تفعلوا شيئًا.
- رجال البوسطة ليسوا من مسؤوليتنا فهم غير تابعين للسجن. هم يعملون تحت إمرة إدارة السجون، وحرس الحدود.
- كان بإمكانكم أن تقدموا الشكاوى لمسؤوليهم عما يفعلونه. هناك عشرات الأسرى الذين قدمنا شكاواهم لكم تعرضوا لاعتداء من رجال البوسطة، وآخرها قبل أسبوع. ليس هذا فحسب، بل كانوا يحرضون السجناء اليهود على ضربهم أثناء نقلهم في البوسطة.

- حسنًا.. أريد الهدوء في السجن حتى أرفع تقريرًا بما حصل لإدارة السجون.

عاد ممثل الأسرى إلى الأقسام ليبلغ الأسرى بما حصل، فصاحوا جميعًا مسرورين: يعيش محمود.. يعيش محمود.

❖ ❖ ❖

مطلوب للتجنيد في إسرائيل

لم يصدّق حامد، من طيرة المثلث في فلسطين المحتلة العام (١٩٤٨)، ما سمعه من الضابط الإسرائيلي بأنه مطلوب للتجنيد في الجيش الإسرائيلي.

- تجنيد؟

- نعم للتجنيد.

- ولكني عربي.

- وأمك راحيل شيرانسكي يهودية، وحسب القانون عليك الخدمة لأن أمك يهودية.

- ولكني لست على دين أمي.

- هذا أمر عسكري، عليك الالتحاق بمكتب الجيش خلال أسبوع.

هز حامد رأسه، واستلم الرسالة، ودخل إلى غرفته غاضبًا وهو يتمتم: (أنا للتجنيد؟ لا يمكن أن أكون جنديًّا في جيش احتلال. أنا عربي فلسطيني. لقد قالها محمود درويش منذ أربعين سنة. سامحك الله يا أبي. لماذا فعلتها؟ لماذا فعلتها؟ أخطاء الآباء دائمًا يدفع ثمنها الأبناء.).

قطعت أمه راحيل عليه حبل تفكيره حين دخلت عليه.

- لماذا أنت غاضب؟ يمكنك توكيل محام ليبحث لك عن حل.

- أستغرب هذا القانون الغريب؛ يقولون إنها دولة اليهود، ويريدونني أن أخدم في جيشها. يقتلوننا ويريدون أن نخدم في جيشهم.

- لا تنس يا حامد أنك إسرائيلي، وتحمل جواز سفر إسرائيلي، وتقدم لك إسرائيل التعليم، والتأمين الصحي، والخدمات الاجتماعية.

قاطعها:

- تدافعين عنهم لأنك منهم.

- لماذا تخاطبني بهذه الطريقة؟ أنسيت أنني أمك؟

- لم أنس، لكنك تتحدثين عن أمور تقدمها أية دولة لمواطنيها، ونسيت النقطة الأهم، إنهم سلبونا ثقافتنا، وانتماءنا، وأرضنا. علّمونا في المدارس عن إسرائيل أنها أرض الميعاد.

- يبدو أنك في حالة عصبية. سأتركك حتى يعود أبوك.

خرج حامد من البيت غاضبًا مصممًا أن لا يذهب إلى التجنيد حتى لو سجنوه. توجّه في الطريق إلى المسجد، فالصلاة تريح أعصابه. هناك التقى بأحد أصدقائه الذي أخبره أن الحركة الإسلامية التي يرأسها الشيخ رائد صلاح قد دعت إلى مشاركة واسعة يوم الجمعة القادم للصلاة في المسجد الأقصى في القدس، وطالب المواطنين المشاركة.

فرح حامد بالخبر، قال لصديقه:

- سجّلني، فأنا أول المشاركين.

إنها فرصه حامد التي انتظرها؛ يريد زيارة المسجد الأقصى مرة ثانية. يريد الصلاة فيه، فهؤلاء اليهود يخططون لهدمه ليبنوا هيكلهم المزعوم. لا لن نسمح لهم بذلك حتى لو على جثثنا.

تحية لهذا الرجل الرائع، الشيخ رائد صلاح. إنه مثال الفلسطيني الصامد في أرضه، والمقاوم لخطط إسرائيل العنصرية.

في المساء عاد حامد إلى البيت عازمًا على المشاركة في مسيرة القدس. كان خلال الطريق يقلب في رأسه الحوار الأخير مع صديقه الذي شجعه على عدم التجنيد.

- إياك يا حامد. لا تكن أداة في هذا الجيش الذي يحتل أرضنا.

- لا تقلق يا عبد الغفار. أنا ألتحق بالجيش؟ سأطالب بإلغائي من الخدمة لأنني لست يهوديًّا.

هز عبد الغفار رأسه وقال له:

- لماذا تزوج أبوك يهودية؟ ولمن نترك بناتنا؟ لليهود؟

- يا عبد الغفار لا تشك لي حتى لا أبكي لك. دائمًا أقولها إننا نحن الأبناء ندفع ثمن أخطاء الآباء.

- تقصد جرائمهم وليس أخطاءهم.

بعد صمت:

- نعم جرائمهم.

وصل البيت. كان أبوه في انتظاره. سلّم عليه وقال له:

- لقد تحدثت مع المحامي، وقال إنه مستعد لمتابعة قضيتك. كلنا معك يا حامد. أنا لا أقبل لابني أن يخدم في الجيش ليقتل أبناء شعبه.

هدأ حامد من غضبه، ونظر إلى أبيه يعاتبه بعينيه، ثم قال له:

ـ حسنًا يا أبي، ومتى موعدي مع المحامي؟
ـ غدًا الساعة العاشرة. سأكون معك.
قالت أمه:
ـ وأنا سأكون معكما.
ـ أنتِ؟
ـ نعم أنا، ألست ابني؟! ! وهل تعتقد أنك لا تعني شيئًا لي؟ لا تنظر إلي هكذا. أنا يهودية صحيح، ولكنني لست مسؤولة عن جرائم الجيش الإسرائيلي. كنت أعمل مع أبيك في المصنع نفسه. كانت علاقتنا طيبة، وكنت أقف معه عندما كان يتعرض لاعتداءات من اليهود، أو استفزازات عنصرية. أحبني وبادلته الحب نفسه. لم نضع الديانة أمامنا لتسد الطريق. تزوجنا لعلّنا نكون نقطة البدء في سلام حقيقي بين أبناء الشعبين.
نظرت إلى زوجها إبراهيم، وتابعت:
ـ هل تذكر يا إبراهيم كيف تعرضنا للهجوم من قبل الأهل في بداية زواجنا؟ أهلك قالوا لماذا تزوجت يهودية؟ في البداية تعاملوا معي بجلافة، ولكن مع الأيام أصبحت منهم، وها أنا أعيش في المثلث مع العرب وأشاركهم أفراحهم وأحزانهم... لم أعترض على أن أولادي اتبعوا دين أبيهم، وأهلي قاطعوني في البداية. قالوا أنتِ تتزوجين عربي إرهابي. لكنهم بعد ذلك تقبلوا الأمر الواقع، وصرنا عائلة واحدة.

ألا تذكر يا حسام (اسأل أباك إن نسيت) عندما كان خالك يوسي وخالتك شولاميت يزورانني؟ كانا سعداء بك. يحملونك. يقبّلونك، ويلعبون معك. أنسيت كم مرة لعبت مع أولادهم؟

- أعرف ذلك يا أمي، وأتذكره. لم أنس أبدًا، لكني الآن كبرت، وتغيرت الأمور على الأرض. أخوك يوسي مدير الشرطة في الناصرة.

- ولكنه يقوم بواجبه في الدولة.

قال له أبوه:

- يا حامد لا تحملنا يا بني كل مشاكل فلسطين. المهم أمك، ولا تقلق بخالك ولا خالتك. لا تنس الموعد غدًا.

هز رأسه، ودخل إلى غرفته، فيما جلست أمه تخاطب أباه:

- حبيبي، لقد تغير حامد منذ التحاقه بالحركة الإسلامية. إنهم يحرّضونه. لم أتوقع ابني أن يكون متطرفًا.

- لا تقلقي يا راحيل، إنها فورة الشباب. سيظل يشعر أنه عربي من أم يهودية.

اقترب منها بعد أن جلس إلى جانبها. ضمها إلى صدره، ثم قبل رأسها. طوقها بذراعيه. نظر إلى عيونها.

بعد صمت قال لها:

- تزوجنا لنوقف سفك الدماء، ونضع نهاية للحروب. كنت دائمًا زوجة رائعة.

طبع قبلة على شفتيها.

- راحيل.
- نعم حبيبي.
- آن الأوان أن يصبح رئيس الدولة من أم يهودية وأب عربي أو العكس، فقد يحل ذلك المشكلة. ابتسمت، ثم قالت:
- ولكن حامد لا يشعر بنصفه اليهودي.
- هل تذكرين قصة غسان كنفاني "عائد إلى حيفا".
- وكيف أنساها. لكم تناقشنا فيها.
- في تلك القصة، الطفل العربي الذي يتركه أبواه يكون في عائلة يهودية، لكن حامد ربيناه معًا أنا وأنتِ. زار أخواله وخالاته.
- أعتقد أنه يعيش أزمة انتماء.
طبع قبلة أخرى، وقال لها:
- وأنا الآن أعيش أزمة...
حملها بيديه، وذهب إلى غرفة النوم.

وفي اليوم التالي أكد لهم المحامي عبد صعوبة القضية، لكنه سيحاول.
(القانون الإسرائيلي يعد كل مواطن من أم يهودية بأنه يهودي.)
- وماذا لو لم يقبل الخدمة في الجيش؟ سأل أبوه.
- سيحكمون عليه بالسجن طيلة فترة الخدمة العسكرية.
نظرت إليه أمه.

- لا أريد ابني سجينًا. لماذا يا بني لا تخدم في الجيش؟ ستمر الفترة بسرعة، وستحصل على امتيازات لا يحصل عليها إلا الذين يخدمون في الجيش. الدروز يخدمون في الجيش.

نظر إليها غاضبًا.

- قلت لكما لن ألتحق بالجيش حتى لو سجنت. أقبل السجن على التجنيد. لكن لماذا أسجن وأنا لست يهوديًّا؟

نظر إلى أبيه، وأزاح وجهه عنه وهو يكرر في داخله السؤال نفسه:

- لماذا فعلتها؟

وصلت صباح الجمعة عدة حافلات من الجليل والمثلث تنقل الفلسطينيين الذين سيشاركون في الصلاة في المسجد الأقصى احتجاجًا على الحفريات المتواصلة أسفله.

إسرائيل اتخذت قرارًا يمنع من هم تحت سن ٤٥ سنة من الدخول إلى المسجد الأقصى، لهذا ظل حامد وعشرات مثله خارج أسوار القدس، وبقي معهم الشيخ رائد صلاح، فاحتشدوا مع آلاف غيرهم من سكان القدس الذين منعوا أيضًا من الدخول إلى المسجد الأقصى.

- ما أروعه من تجمع!

قال حامد لصديقه عبد الغفار.

- حقًّا أشعر اليوم بانتماء حقيقي.

فلسطينيو الجليل والمثلث مع فلسطينيي القدس يقفون أمام سور القدس رافضين إجراءات الاحتلال.

اقترب موعد الصلاة. تجمع الناس أمام بوابة باب العامود. ازدادت الأعداد. فرش كل منهم سجادته، ودعا الشيخ رائد إلى الصلاة. كانت صفوف المصلين لكثرتها تسبب أزمة سير. حاولت الشرطة منع المصلين الجدد من الانضمام إلى المصلين الآخرين، فاصطدمت مع المواطنين. بعض الشباب ألقى الحجارة باتجاه الشرطة فبدؤوا بضرب المواطنين العرب من كل اتجاه.

رفعت الشعارات المنددة بالاحتلال، والمطالبة بانسحابه.

الأقصى للمسلمين. القدس للعرب. ارحلوا عن بلادنا...

كان حامد غاضبًا عندما رأى شرطيًّا هاجمًا بفرسه على أحد المواطنين المقدسيين يضربه بالعصا، فرفع زجاجة الماء التي يحملها وقذفها في وجه الشرطي. رآه شرطي آخر من بعيد فأطلق عليه رصاصة مطاطية أسقطته على الأرض. حمله مواطنون، ونقلوه فورًا إلى مستشفى المقاصد الخيرية في القدس.

لم تصدق أمه الخبر.

- حامد مصاب، حبيبي، ابني.

- لا تقلقي.

قال لها زوجها، ثم تابع:

ـ لقد تحدثت معه وهو بصحة جيدة، ولكنه يشعر بألم حاد في أذنه من شدة الرصاصة المطاطية. سيعود مساء اليوم إلى البلد.

صورة حامد ملأت الصحافة الإسرائيلية.

حامد من الطيرة مصاب برصاصة جندي إسرائيلي بالقدس.

اتصل يوسي بأخته يسألها:

ـ كيف حامد؟

ـ لقد أصيب في رأسه. لماذا تطلقون الرصاص على مواطنين عزل؟

ـ لكنه قذف الشرطي بقنينة.

ـ يا يوسي، المياه الآن كلها بعلب بلاستيكية، وليس زجاجية.

ـ آسف لما حدث معه يا راحيل. ابنك التحق بالحركة الإسلامية. إنهم ضد الدولة، ويكرهون اليهود. ألم تعلّمينه كيف يحب أخواله.

ـ وهل الأمر بيدي وحدي يا يوسي؟

ـ وماذا تقصدين؟

ـ لو أحب أخواله سيكره أعمامه لأن أعمامه وأخواله لا يحبون بعضهم بعضًا. عاش الصراع منذ كان طفلاً. أنسيت يا يوسي؟ أنسيت أن عم أبيه لاجئًا في مخيمات لبنان؟

ـ لسنا مسؤولين عن ذلك. هو الذي هرب إلى هناك.

ـ يوسي هذا كلام تقوله للعرب وليس لي، حتى لو هو الذي هرب لماذا يمنع من العودة إلى بلده؟

- راحيل، لا أعرف ماذا أقول لك.
- أنا الذي أقول. حامد ابني يحمل في داخله كل صراعات اليهود والعرب. إنه يصارع نفسه. يمينه ضد شماله يحاول أن يوحد بينهما، لكنه عاجز. لا يعرف ماذا يفعل؟ لقد لجأ إلى الحركة الإسلامية لأنه رأى فيها الحركة التي تدافع عن الطرف الأضعف المظلوم. لقد وقف مع أعمامه ضد أخواله لأنه رأى تشردهم وبؤسهم.
أغلقت راحيل الخط مع أخيها، وجلست وحدها تراجع ذكرياتها. كانت تنشط مع حركة السلام، ولكنها تشعر أن السلام الحقيقي أبعد من الأرض عن السماء.

وصل حامد في ساعة متأخرة من الليلة التالية إلى البيت. كان أبوه وأمه بانتظاره.
- حامد حبيبي.
هجمت عليه أمه تقبّله، ثم أبوه. عانقهما. قبّل يديهما، وقد هالهما منظر أذنه اليسرى المصابة.
- هل أنت بخير؟
- الحمد لله. لكني أشعر أن سمعي قد خف قليلاً. الطبيب قال لي سوف تتحسن.
هنأوه بالسلامة، ولامته أمه.
- لماذا ضربت الشرطي بالماء يا بني؟ لا أريدهم أن يقتلوك.

ـ لو متّ لكنت أسعد شهيد يسقط على أرض القدس.

ـ أتموت من أجل زجاجة ماء؟

ـ لا ليس من أجل زجاجة ماء. إنها معركة بين الخير وبين الشر. بين الاحتلال وبين الشعب الراسخ تحته. بين العرب مسلمين ومسيحيين وبين واليهود.

ـ هل عدت للنغمة نفسها؛ اليهود، اليهود! ليس اليهود من ضربك. إنه الجيش الإسرائيلي.

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق كبير. الجيش أداة الدولة. أما اليهودية فهي ديانة. قد تجد يهودًا يحبون السلام ويكرهون الحرب.

هز رأسه، وقال لها:

ـ بصراحة، لا تزعلا مني، ولكني أسأل نفسي أحيانًا: ألم تشعرا يومًا أنكما لم تفكّرا جيدًا في مستقبل أبنائكما؟

قال أبوه:

ـ لم تبق إلا أن تحاكمنا. عندما تتزوج أنت اختر من تراها مناسبة. لن نتدخل في شؤونك.

جاء موعد التجنيد. لم يذهب حامد إلى قسم الجيش، فجاءوه مساء في سيارة شرطة عسكرية واعتقلوه. لم تفلح محاولات أمه وأبيه لتركه حتى الصباح.

في إدارة الجيش رفض حامد التجنيد، وأعلمهم أنه يرفض الخدمة في الجيش، فكل حروب إسرائيل ضد الفلسطينيين والشعوب العربية، وهو لن يشارك في قتل شعبه.
تم تحويله بعد ذلك إلى السجن العسكري حيث احتجز في أحد المعسكرات، وأوكلت له مهمة العمل في النهار في المعسكر، لكنه رفض العمل كليًّا في المعسكر.
قال لهم:
- ما دمت أرفض الخدمة في الجيش، فأنا أرفض خدمة الجيش الذي يقمع أبناء شعبنا.

نقلوه إلى زنزانة (سجن انفرادي)، وقرروا حجزه انفراديًّا حتى يوافق على العمل داخل المعسكر.
في زنزانته لم يسمحوا له بإدخال الكتب، واكتفوا بنسخة من القرآن الكريم، فانكب يحفظه كله. لكنه كان يشعر بالملل، فالسجن الانفرادي متعب؛ النهار طويل، ولا يستطيع المشي والحركة. لا يتحدث مع أحد.
كان يجلس ساعات طويلة أحيانًا يقلب الأمور، ويفكر بمصيره، ولماذا وصل إلى هناك.
- رحم الله المعري.
(هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد)

أنت السبب. أنتما السبب. لماذا تزوجتما؟ من قال لكما أن تتزوجا وتنجباني؟ ألم تفكر يا أبي؟ ألم تحسب حساب مستقبل أبنائك؟ أكل ما يهمك مشاعرك العاطفية والجنسية؟

كان السجانون الجنود يحاولون إثارته باتهامهم له بأنه خائن لأمه:

- ليت أمك لم تنجبك. فيك دم عربي وسخ.

كان يتحمل كل إهاناتهم بصبر، فليس أمامه غير ذلك.

زاره أبوه بعد شهر تقريبًا. كان دون أمه. قال له: ستزورك أمك في المرة القادمة.

حرص أبوه على زيارته لوحده، لعل ابنه يريد أن يقول له شيئًا كعادته. يريد أن يعاتبه. لم يخيب ظن أبيه فهو يعرف ابنه ومعدنه. شد أبوه على يديه، وسأله:

- كيف تقضي أيامك هنا؟

- كما ترى أقضيها وحيدًا، فقد منعوني من كل شيء. طلبوا مني العمل في المعسكر، لكني رفضت. لن أخدم الجيش. لن أنظف معسكراتهم. لن أغسل ملابسهم ولا أحذيتهم.

هذا ليس جيشي ولا أنتمي إليه. قالوا لي أنت إسرائيلي، فقلت لهم أنا عربي وليس يهوديًّا. صمت قليلاً، ثم قال لأبيه:

- فلسطين ليست يا أبي جواز سفر. فلسطين انتماء ثقافي. إنه ليس الاسم. إنه الهوية الحقيقية لنا.

كان أبوه يستمع إليه وهو فخور بهذه الأفكار التي يحملها ابنه. لقد أصبح رجلاً يختلف عن أبناء جيله من الشباب العرب من أهل البلد الذين انغمس بعضهم في المخدرات والجنس.
(الحمد لله أن حامد ليس منهم. الحمد لله أنه رمز لأبناء شعبه. الشكر للحركة الإسلامية التي جعلت منه مواطنا صالحا.)
قال حامد لأبيه:
- ألم تشعر بالذنب يا أبي لأنك تزوجت يهودية؟
تنهد أبوه قائلاً:
- يا حامد، أنا لست الوحيد الذي تزوج يهودية، وعندما تزوجتها جاءت لتعيش معنا بيننا كأي امرأة عربية.
- ألم يفكر أحد منكم بمصير الأولاد؟ لماذا حصرتم تفكيركم فقط بمشاعركم العاطفية وجمال زوجاتكم؟ ألم تفكروا يومًا بهذه اللحظة؟
- وما الخطأ الذي ارتكبناه بمصير أولادنا؟ ها أنت تعيش معنا في البلد كأي مواطن عربي. بعض أبناء اليهوديات في القرية أفضل من بعض الشباب أبناء المسلمات الذين انحرفوا وأصبحوا من تجار المخدرات.
نظر حامد إلى أبيه، وقد ظهرت بعض الدموع على خدوده.
قال لأبيه:
- يا أبي، يبدو أنك لا تعرف ما أعانيه ولن تشعر به.
صمت قليلاً، ثم أكمل:

- ألم تقل يومًا إن عمك كان أحد اللاجئين إلى جنوب لبنان العام (١٩٤٨) عندما كان يسكن في حيفا؟ ألم تحدثني كيف منعوه من العودة، وأن أولاده الأحياء الآن يعيشون في مخيم عين الحلوة هناك يحلمون بالعودة إلى بيتهم القديم؟

- ما الذي تريد أن تصل إليه؟

- الذي أردت أن أصل إليه، كيف تزوجت ابنة مهاجر روسي، والذي هو جدي، جاء يستوطن بيت عمك القديم ويحتل مكانه؟ كيف يكافأ الضحايا جلاديهم؟

- ما ذنب أمك يا حامد؟ لقد ولدت هنا مثلي ومثلك.

هز حامد رأسه:

- يا أبي هي أمي. أحبها. أحترمها. وصانا الرسول على أمهاتنا. أنا أتكلم عنك أنت عن زواج مع زوجتك. كيف قبلت الزواج منها؟ ألم تفكر أن ابنك عندما يكبر سيكون مشطورًا بين الضحية والجلاد. ألم تعد العدة لهذه المرحلة؟ أنا أنتمي لعائلة أعمامي الضحايا وأخوالي الجلادين! هل هذا ما حلمت أن تضعني فيه. أقارب لاجئون، وأقارب طردوهم وسكنوا مكانهم. عندما كنت ألعب مع زملائي العرب في المدرسة كانوا يعدونني فلسطينيًّا عربيًّا، ولكن إن تشاجرت مع أحدهم قال (ابن اليهودية)، وإن تعرفت في خارج البلد إلى يهودي قال (ابن العربي.)

- ولكنك ابن الطيرة، ابن عبد الغفار، مالك ولأخوالك.

ـ كيف ذلك؟ ألست إنسانًا؟ ألا أحلم أن يكون لي خال يحبني وأحبه؟ أليس من حقي أن تكون لي خالة كعمتي، تلعب معي وأنا طفل وتغني لي يا ظريف الطول كما كانت عمتي مليحة تغني لي؟ لماذا يجب أن أكون مقسومًا نصفين؛ نصف أنتمي إليه، ونصف أصارعه من أجل البقاء. نصفي الأول يريد أن يلغي النصف الثاني.

انحيازي إلى فلسطين يا أبي لا ينهي المشكلة، بل يشكل مقدمتها. كيف تريدني أن أعيش لجد جاء هنا مستوطنًا وحال هو وأولاده دون عودة عمك من دار اللجوء والتشتت؟

لا يا والدي، عليك أنت وكل الذين تزوجوا اليهوديات في بلدنا أن تعترفوا بخطئكم، فلو فكرت بمشاعر ابنك القادم لغيرت رأيك.

كان أبوه صامتًا كأنه يعيد حساباته. ماذا يقول لابنه الذي عبّر له عن إحساس لم يفكر به يومًا ما.

(هل أساء الولد الأدب أمام أبيه؟)

كلاً، كل كلمة قالها صحيحة. يبدو أن غسان كنفاني لم يفكر بها؛ إما لأنه اهتم بالفكرة الأساسية، أو لأنه لم يغص عميقًا في دواخل شخصيات "عائد إلى حيفا".

ها هو حامد يؤكد أن الإنسان ليس انتماءً ثقافيًّا وحضاريًّا وفكريًّا فقط، بل هو مجموعة من المشاعر والأحلام والذكريات.

عندما عاد الأب إلى البيت، طمأن راحيل عن ابنهما، وقال لها وهو يحتسي معها فنجان القهوة:

- راحيل، ما سمعته اليوم من حامد أثارني، وأعادني عشرين عامًا إلى الوراء، وطرح علي نقطة جوهرية لم أفكر بها يومًا.

كنت عندما تزوجتك فكرت بكِ أنتِ. بحبي لكِ. بحبك لي. بانحيازك إلى السلام والتآخي بين شعبينا، ولا أعتقد أنني أخطأت في تصرفي. لم أندم على خياري. ما زلت أؤمن أنني اخترت الطريق الصحيح، ولكن حامد يرى الأمور من منظار آخر يختلف كليًّا. إنه يتساءل: لماذا عليه أن يكون ابن أخ الضحايا وابن أخت الجلادين؟ لماذا جعلناه في وضع لا يستطيع فيه أن يكون مع الطرفين؟ ربما لو كنتِ ألمانية وكنت أمريكيًّا مثلاً لكان حال ابننا عاديًّا. لم يشعر بتلك المشاعر، ولم يعش ذلك التناقض، ولكن الصراع القائم بين العرب واليهود لا يمكن أبدًا إلا أن يترك تأثيره عليه.إنه باختصار يشعر أنه ينتمي إلى نصف عائلة، وأنه كان سيكون أسعد لو كان ينتمي لعائلة موحدة.

تنهدت، وقالت له:

- هل أخطأنا عندما اخترنا طريق السلام؟ أم أن قدر شعبينا أن يعيشا بصراع دموي؟ هل كان حامد سيعاني ما يعانيه لو تحقق السلام بين الشعبين وتوقف سفك الدماء؟ أعرف أن اليهود ظلموا العرب هنا وطردوهم من أرضهم، لكن.. ماذا علينا أن

نفعل الآن؟ كيف يمكن تصحيح الوضع؟ كيف يمكن لي ولك أن نوحد مشاعر ابنك؟ أن نجعله يشعر بالانتماء لعائلة موحدة؟ كيف يمكننا أن نجعله يحب أخواله كما أعمامه؟

- من الصعب يا راحيل. أنا شخصيًّا لم أفكر بذلك من قبل. قلت له: (لقد فكرت بك أنت فقط)، أما هو فالمسألة تختلف. يريد خاله كما يريد عمه. قال لي:

- لقد حرمتني من خال وخالة وجدًّا.

ابننا اتهمني بأنني قسمته إلى نصفين.

- هل تشعر بالندم على خطوة زواجنا؟

- لا.. لا أشعر ذلك. لكن.. أعتقد الآن أنه على صواب أيضًا.

- ماذا لو تزوج كل اليهود عربًا وكل العرب يهودًا.

- إنه حلم غير قابل للتحقيق يا راحيل، حتى لو حصل ذلك فلن يحل المشكلة. هل تعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- لأن بعضهم سينحاز إلى الطرف المظلوم كما حصل مع حامد، وبعضهم الآخر سينحاز إلى الطرف الظالم ويتقمص شخصيته ويحمل سوطه، وسيظل التناقض قائمًا.

- أوه يا حبيبي وما الحل؟ ما الحل؟ يا إلهي ماذا نفعل؟

- لا يوجد سوى حل واحد.

- ليته يكون نهاية المأساة.

- أن يتخلى الجلاد عن سوطه، ويضمد جراح ضحاياه، فهل يفعلها يومًا ما؟

- متى يتحقق ذلك؟

- عندما يقلق أنين الضحايا حياة الجلاد ليل نهار فلا يعرف الراحة ويتعذر عليه إسكاتهم.

❖ ❖ ❖

ملك الأنتيكة

(أنا ملك الأنتيكة في فلسطين..

من يدّعي عكس ذلك فليتحداني).

هكذا كان يعلن دائمًا للناس منذ افتتاح محله الجديد في باب الخليل في القدس.

الشيخ عدنان ملك الأنتيكة. هكذا عرفه الناس، وبهذا يجب أن يُعَرَّف.

كان رجلاً أميًّا، فلم يلتحق بمدرسة قط، وعلى الرغم من ذلك كان يدّعي أنه ملك الآثار. يعد نفسه خبيرًا بالعملة الأثرية القديمة التي يطلق عليها العامة في فلسطين (أنتيكا)، وهي كلمة معربة عن الإنكليزية كما يبدو من لفظها عن كلمة (أنْتِكْوِتِز).

منذ صغره كان يذهب مع القرويين إلى المناطق الأثرية في الجبال ينقب عن الآثار مع أن ذلك ممنوع، ومع الأيام تعرف إلى كل أنواع النقود المدفونة في جبال فلسطين من عملة، وحفظ عن ظهر قلب سعر كل قطعة منها، بل أصبح يميز القطع الأصلية من المزيفة.

لم يكن الشيخ عدنان الوحيد في القدس الذي يتاجر بالآثار، فقد سبقه عدة تجار أصبحوا من كبار تجار البلد وخبراء في آثارها النقدية، والفخارية، والحجرية، والزجاجية. و(كندو) أشهرهم، ربما لأن محله كان من المحلات القديمة والأنيقة، ويقع خارج

البلدة القديمة بجوار فندق (السانت جورج) الواقع على بعد أمتار من شارع صلاح الدين.

لم يكن السيد كندو يعترف بالشيخ عدنان كخبير آثار، بل كان دائمًا يسخر منه، ويعده من الأشخاص الذين ينتحلون تلك الصفة دون أي سند؛ فالآثار علم قائم بذاته، لا يمكن أن يلم بها أمي مثل الشيخ عدنان.

هذا التصرف أغاظ الشيخ عدنان، ولكنه كتم غيظه بانتظار لحظة الانتقام.

السيد كندو كان من أغنياء البلد في تجارة الآثار، والقطع السياحية، وقد بنى ثروته من القطع الأثرية التي كان يشتريها من القرويين في قرى القدس، ومدن الضفة الغربية، وقيل إنه اشترى في أحد المرات مجموعة من القطع تقدر بملايين الدولارات، ولكنه بذكائه وحنكته استغفل صاحبها ودفع له خمسين ألفًا، مع أنها تساوي أكثر من ذلك، فقبل صاحبها فرحًا بالمبلغ دون أن يعرف أنها ثروة العمر كله.

في سبعينيات القرن العشرين (١٩٧٥) تعرف الشيخ عدنان إلى أحد القرويين من قرية (سعير) القريبة من الخليل، فعرض عليه التنقيب معًا عن الآثار، قال له:

- يا أبا محمد، عندي لك مهنة ستأكل من ورائها ذهبًا، ولكن عدني أن تظل سرًّا بيننا؟

وعده أبو محمد متلهفًا لمعرفة سر المهنة الجديدة.

- اسمع.. أنا أعرف منطقة أثرية في الخليل سنذهب أنا وأنت للتنقيب فيها، وما نحصل عليه نتقاسمه.

هز أبو محمد رأسه موافقًا.

فقال الشيخ عدنان:

- على بركة الله. غدًا نتحرك سويًّا بعد الفجر، وسنلتقي قرب باب الزاوية في الخليل.

في اليوم التالي كانا ينقبان عن الآثار، ولكنهما لم يحصلا على أي شيء، فقال له الشيخ عدنان:

- لا تحزن. إن شاء الله غدًا يكون أحسن.

فعلاً في اليوم الثاني وجدا عدة قطع بعضها روماني، وأخرى إسرائيلية، وبعض القطع القليلة الإسلامية التي تعود إلى العهد الأموي.

قال الشيخ عدنان لأبي محمد بعد عودتهما معًا إلى القدس:

- اسمع يا أبا محمد.. أستطيع أن أشتري منك القطع هذه، وأدفع لك نصف قيمتها، ولكني لا أريد أن أظلمك أو أظلم نفسي، لذلك سأرسلك لبيعها لتاجر آثار كبير يدعى السيد كندو على أن لا تبيعها بأقل من عشرة آلاف دولار نصفها لك بعد عودتك بالفلوس من عنده.

فقال له أبو محمد:

- هل ستحضر معي؟

- كلاً طبعًا، لو رآني سيعتقد أنني قدمت لأعرف أسعار العملة، لذلك سيرفض التعامل معنا. أنت تعرف كيف يتنافس تجار المهنة بالسوق، لذا لا تذكر اسمي أمامه، وإياك أن تقول إنك تعرفني، أو عرضت البضاعة علي، حينها سيطردك من محله.

- اتفقنا.

- والأهم أن تقول له إنك لم تعرضها على أحد غيره بعد، ولكنك ستعرضها إذا لم يشتريها بالسعر المناسب.

- فهمت.

- إذًا على بركة الله. محل السيد كندو يقع بجانب فندق السانت جورج.

وصل أبو محمد محل السيد كندو، وعندما دخله كان بعض السياح يستعرضون بعض القطع الأثرية، وأمامهم ابن كندو يشرح لهم تاريخ كل قطعة، فيما كندو الأب يجلس في زاوية المحل خلف أحد فاترينات العرض الأرضية، وعندما رآه وقف وأشار إليه بيده ليتبعه إلى مكتبه حتى لا يزعج حديثه السياح. كان كندو يعرف ما يريده القرويون أمثال أبي محمد، فهم لا يدخلون محله إلا حاملين قطعًا أثرية ليبيعونها إليه.

في مكتبه الصغير قال له بهدوء:

- ماذا في جعبتك؟

وضع أبو محمد يده في جيبه، وأخرج صرة صغيرة قديمة، وبعد أن فكها وضعها أمام السيد كندو قائلاً:

- تفضل إنها (١١) قطعة.

جلس كندو خلف المكتب، وبدأ يفحص القطع واحدة إثر أخرى بالمجهر الصغير الذي أخرجه من درج مكتبه، وبعد دقائق ارتسمت على وجهه علامات الرضا وإن حاول أن يخفيها بقوله:

- هذه القطع ليست ذات قيمة مالية، فالقطع الإسلامية لا أحد يشتريها بمبالغ كبيرة، وهذه قطعة إسرائيلية غير مرغوبة، وتلك قيمتها ليست أكثر من مائة دينار.. على كل حال سأدفع لك بجميع القطع ألف دولار لأشجعك على التنقيب عن غيرها. نظر إليه أبو محمد متذكرًا قول الشيخ عدنان، وقال له:

- يفتح الله يا عم. سأعرضها على غيرك.

- لماذا تضيع وقتك؟ لن يدفعوا لك أكثر.

- لقد قيل لي بالخليل إنها تساوي عشرة آلاف دولار.

شعر كندو بالراحة عندما سمع المبلغ، فالقطع تساوي أكثر من ذلك بكثير. صمت لحظة، ثم قال لأبي محمد:

- اجلس قليلاً. دعنا نتعرف إليك.

- أنا أبو محمد من سعير قضاء الخليل.

- ولو يا رجل، وهل نجهل قرية سعير؟! أنتم أهل الخير والبركة. هل عرضت هذه القطع على أحد قبلي؟

- لا ليس بعد، لكن أحد أقاربي من القرية سبق وباع مثل تلك القطع، وقال إنها تساوي أكثر من عشرة آلاف دولار.
نظر كندو إلى القطع مرة أخرى، وحتى لا يضيع عليه الفرصة قال لأبي محمد:
- هذا يتوقف على الشاري، ولكنك تعلم أن القطع الأثرية ليست مثل المأكولات، فقد أبيع هذه القطع غدًا، وقد تباع بعد خمس سنوات.
- على كل حال سأعود لك إن لم يدفع أحد أكثر منك.
- انتظر.. ما رأيك بخمسة آلاف؟
- لا ليس أقل من عشرة.
حك كندو رأسه، وعدل من جلسته، ثم قال:
- أمري لله، يبدو أنك ستغلبني هذه المرة، سأستفيد منك في المرة القادمة.
أخرج من درج مكتبة رزمة بقيمة عشرة آلاف دولار، وبعد أن عدها قدمها لأبي محمد الذي جلس يعدها ورقة ورقة غير مصدق أنه سيحصل بعد قليل على نصفها.
عاد أبو محمد إلى الشيخ عدنان بالمبلغ حيث تقاسمه معه، وقد وعده الشيخ عدنان أن يزوره لاحقًا عندما يقرر التنقيب في منطقة أخرى، فيما كان كندو يفرك يديه فرحًا لهذه الصفقة التي نزلت عليه من السماء.
بعد ساعتين، اتصل الشيخ عدنان بكندو تلفونيًّا، وقال له:

- ألو، السلام عليكم.
- من المتكلم؟
- ألا ترد السلام يا كندو؟
- الشيخ عدنان؟ وعليكم السلام. ماذا تريد؟
- ألا تريد أن تهنئني؟
- أهنئك؟ خيرًا إن شاء الله؟
- لقد فزت عليك بالسباق.
- سباق؟ أي سباق؟
- سباق الأنتيكة. أنا الآن ملك الأنتيكة.
ضحك كندو ساخرًا، وقال له:
- أهذا ما تريد أن تبلغني إياه؟
- لم تسألني بماذا فزت عليك؟
- وبماذا فزت يا ترى؟ أنت بالكاد تفك الحرف.
- لقد بعتك أنتيكة مضروبة قبل قليل بعشرة آلاف دولار.
صمت كندو بعد أن تجمد الدم في عروقه.
- أنتيكة مزيفة؟
- التي اشتريتها من أبي محمد.
- من أبو محمد؟
- كفاك كبرياء. أبو محمد السعيري.
احمر وجه كندو واشتعل غضبه، فرد عليه:
- وهل هذه بضاعتك إذًا؟

- عليك نور. هذه الأنتيكة من صناعة عمك الشيخ عدنان، حتى تعرف من هو ملك الأنتيكة.

- إذًا هي مزيفة؟

- ألم تفحصها؟

- فعلتها يا عدنان؟ سأتصل بالشرطة.

- من فضلك.. الملك عدنان. ثم ماذا ستفعل لك الشرطة؟ ألديك دليل؟ ثم هل نسيت أن شراء الآثار ممنوع؟

- لكنه ادعى أنه وجدها في جبال الخليل؟

- صحيح، ولكنك لم تعرف من أخفاها في ذلك الجبل.

- أنت إبليس يعجز عن أعمالك.

- وأنت جاهل رغم خبرتك الطويلة في الأنتيكة. عليك الاعتراف بأنني...

قطع كندو الاتصال، وقال لنفسه:

- ملك الأنتيكة.

❖ ❖ ❖

من أجل ندى

كان يلاحقها بنظراته وابتساماته كلما التقت عيناه بعينيها، فقد أعجبته من بين كل الطالبات العربيات في مدرسة حيفا الثانوية.
كان أبوه يحذره من الفتيات العربيات، ويقول له:
- لا تقترب منهن، فنحن لسنا عربًا.
لم يكن يستمع لنصائح أبيه، فهو لا يشعر بالانتماء لليهود، بل يعد نفسه غريبًا عنهم، كما يعدونه من غير جنسهم. دائمًا يتهامسون عليه، ويطلقون عليه النكات، لذلك كان منعزلاً عن كل الطلاب. نادرًا ما يتحدث مع أحد.
حتى رآها فتغيرت مشاعره. في البداية خاف من الاقتراب منها، ولكنه بعد فترة تجرأ واقترب منها عندما رآها تسير وحيدة في ساحة المدرسة، وقال لها:
- أنا سامي، هل يمكن التعرف إليكِ؟
كانت تلاحظ نظراته إليها فتتظاهر باللا مبالاة، مع أنها كانت راغبة في أن يلاحقها بعينيه. أعجبها منظره، فقد كان وسيمًا. كان في الصف الأخير من المدرسة، فيما كانت هي في الصف الحادي عشر. قالت له:
- أنا ندى.
شعر بارتياح أنها ردت عليه، فبعضهن يرفضن حتى الرد. شجعه ذلك للحديث معها. قال لها بعد أن مد يده ليصافحها:
- فرصة سعيدة أنني تعرفت إليك...
قاطعته بعد أن رأت أن لهجته غير حيفاوية:

- هل أنت من حيفا؟
- أنا انتقلت حديثًا من الناصرة مع والدي الذي انتقل من عمله إلى حيفا، فانتقلنا جميعًا. جميلة حيفا. لم أعرف أن فيها نساء بجمالك.
أعجبها إطراؤه، قالت له:
- شكرًا سامي.
نظرت إلى ساعتها، ثم قالت له:
- اقترب موعد الدرس.
فقال لها:
- هل أستطيع رؤيتك بعد الدوام في المدرسة؟.
- لا أدري.
- لا تكسفيني.
- حسنًا، سأراك بعد المدرسة.

كان ينتظرها عند الباب. لم يصدق نفسه، فقد وجد فيها فتاة أحلامه. سار معها في الطريق، وتسامرا.
كثرت لقاءاته معها ما أثار حنق زملائها الطلاب، فطلبوا منها قطع علاقتها به. اقترب منها أحد الطلاب يدعى مهند وقال لها:
- ندى هل تعرفين من هذا الطالب؟
- ماذا تقصد؟
- هذا لبناني وليس فلسطينيًّا.

ـ ولكنه قال لي إنه من الناصرة.
ـ كذب عليكِ، ربما كان يسكن هناك. هذا من الجواسيس اللبنانيين الذين هربوا مع الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان.
ـ معقول؟
ـ هل تريدين أن أقول ذلك أمامه؟
تغير وجه ندى. لم تعرف ماذا تقول. تركت مهند، وغادرت المدرسة دون أن تنتظر سامي.
فوجئ بغيابها، فاتصل بها، ولكنها لم ترد على اتصاله.
ازداد قلقه. اتصل بها عشرات المرات، وفي النهاية وجد الخط خارج الخدمة.
انتظر حتى اليوم التالي، وتوجه في الصباح إلى المدرسة مبكرًا، وظل ينتظرها عند الباب، وعندما رآها قادمة أسرع باتجاهها عابس الوجه. سألها:
ـ ندى لماذا لا تردين على اتصالي؟
نظرت إليه، ثم قالت:
ـ لماذا كذبت علي حقيقتك؟
تغير وجهه. سألها:
ـ ماذا تقصدين؟
ـ أنت من جماعة (لحد) الهاربين من الجنوب؟
ـ ندى أنا لم أهرب من الجنوب.
ـ وكيف جئت إلى هنا إذًا؟

- كنت طفلاً في العاشرة عندما جئت مع أمي وأبي، لا أعرف لماذا تركنا ضيعتنا هناك، قالا لي سنعود، وبعد ذلك قالا لي: هذا هو وطننا النهائي.

- لماذا لم تقل إنك لبناني؟

- وهل هناك فرق؟ هناك فلسطينيون في لبنان.

- لقد شردوا من وطنهم، ولكنكم جئتم تخدمون إسرائيل.

- ندى، لا تحمليني إثم والدي.

- ولكنك ابنهم، تعيش معهم أليس كذلك؟

- ندى، هل سنتكلم هنا ونحن واقفين؟

- سامي لم يعد بيننا كلام.

تركته وانصرفت باتجاه بعض الزملاء الذين شاهدوها تتحدث معه.

ناداها.

- ندى، دعيني أشرح موقفي، أرجوكِ.

لم ترد عليه.

شعر بإهانة وإحباط. تركها وذهب إلى الصف.

شعر أن لطمة كبيرة وقعت على وجهه. كان خلال الدرس شارد الذهن. لم يفهم كلمة واحدة من كلام المدرسين.

عاد بعد الظهر إلى بيته غاضبًا، وعندما وصل قال لأمه بعد أن استراح قليلاً:

- أمي، لماذا تركتما لبنان؟

نظرت إليه فرأت علامات الغضب بادية على وجهه. سألته:
- هل اشتقت إلى لبنان؟
- أريد أن أعرف الحقيقة.
- أية حقيقة؟
- هل نحن جواسيس؟
- جواسيس؟ لا طبعًا. نحن لسنا جواسيس. نحن وطنيون. كان أبوك يقاتل من أجل حرية لبنان.
- لماذا إذًا هربنا من لبنان.
- هربنا من جماعة إيران وسوريا والمخربين....
فقاطعها:
- أمي لا تضحكي علي. إيران وسوريا ومخربون! لماذا لم يهرب كل اللبنانيين إذًا؟ أليست إسرائيل عدوة للبنان؟
- هل الفلسطينيون خربوا رأسك بالكلام الفارغ؟
- الفلسطينيون؟! ألسنا في بلادهم؟
- لا هذه بلد الإسرائيليين.
- أمي دخلك، أنا زهقت من هذا الكلام.
- عندما يأتي أبوك سيشرح لك كل شيء. نحن الآن إسرائيليون، مثل الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل، وبعضهم يعمل في الحكومة...
- قصدك جواسيس للحكومة.
صمت لحظة، ثم تابع:

- مثلنا نحن؟!
- لن أرد عليك. يبدو أنك متوتر الأعصاب الآن.
تركته وذهبت إلى غرفتها.

جلس سامي وحيدًا يقلب الأمور في رأسه؛ هل يستسلم لما جرى أم يحاول أن يشرح لندى الوضع لعلها تستمع إليه؟
بعد لحظات كان أمام الحاسوب يكتب لها بالعبرية، فلغته العربية بالطباعة غير قوية، شرح لها موقفه. حلف لها الأيمان أنه يحبها، وأنه غير مسؤول عما فعله أبوه، لكنها لم ترد عليه، وعندما عاد أبوه فتح معه الموضوع وكان جافًا معه. قال له:
- أنت ما زلت صغيرًا على فهم ما يجري في لبنان. انتبه لدروسك، ولا تهتم بما يقوله لك الفلسطينيون الكلاب. الحمد لله أن إسرائيل تدوس عليهم وتريحنا من شرهم.
- والدي...
- اسمع سامي، ليس عندي كلام آخر أقوله لك.

في اليوم التالي حاول الحديث معها. قال لها عندما رآها:
- ندى، هل تسمحين لي بكلمة؟
- تفضل.
- ندى، ما ذنبي في كل ما جرى؟ لماذا تدفعيني لكي أكون مثل والدي؟ أنا أريد أن أكون منكم، معكم. أنا أحبك. أقسم أنني غير راض عما يفعله والدي...

قاطعته:

- ما دمت غير راض عما يفعله والدك، فعليك تغيير نظرة الناس إليك.

- كيف؟

هزت رأسها:

- لا أعرف... هل فكرت بالعودة إلى لبنان؟

- كيف؟ قد يقتلونني..

- من سيقتلك؟

- حزب الله.

- ليس إن أكدت لهم أنك بريء مما فعله والدك.

- وهل تتزوجيني لو عدت؟

لم ترد، هز رأسه، وقال:

- أعرف أن الأبناء دائمًا يدفعون ضريبة جرائم الآباء.

تركها، وغادر المدرسة، ولم يعد لها.

بعد عدة أيام جاء في الأخبار أن مواطنًا لبنانيًا تسلل من الحدود، فأطلقت عليه النار دورية حدود إسرائيلية فسقط قتيلاً. الحكومة اللبنانية تأسف للحادث وتعلن أن القتيل شاب لبناني اسمه سامي عبد الله كان عائدًا على ما يبدو من فلسطين المحتلة إلى وطنه لبنان.

(تشرين ثان ٢٠٠٩)

من القدس إلى بيروت

(إلى روح الشهيد نسيم زيد ، ابن القدس البار)

ما زلت أذكره، فكيف يغيب عن بالي وهو الذي لم تكن بسمته تفارق وجهه؟ يا له من صديق، كان الجلوس معه ينسيني كل هموم الدنيا التي كنت أحملها على أكتافي منذ صغري. ليته اليوم معنا لنأنس به، ونستعيد معه بعض ذكريات الشباب الذي لن يعود.

عندما تعرفت إليه قال لي:

- أكثر ما يحبّبني بنادي الموظفين في القدس، أنه عرفني إليك. لماذا عدت من أمريكا بعدما وصلتها؟

- أتعرف إليك يا نسيم.

ضحك نسيم.

ومنذ تلك الأيام ضمني إلى قائمة أصدقائه المخلصين.

عندما قرر إقامة حفلة في بيته لمناسبة عائلية كنت واحدًا من المدعوين. تبادلنا الأحاديث الطيبة والنكات، وكانت مناسبة من الصعب علي نسيانها بعد ذلك.

كان نسيم واحدًا من شباب النادي النشطاء. أحبه الجميع حتى من كانوا يختلفون معه في الرأي، وعندما أخبرنا بعض الأصدقاء أن عمال مطعم أمية قد أعلنوا الإضراب مطالبين بحقوقهم، فقد كان أول المشاركين معهم، وكانت وقفته كبيرة، على الرغم من أنه كان عاملاً حديث العهد ليس له أية حقوق. لم نفرح كثيرًا بصداقته، فقد أعلن أنه سيغادرنا للدراسة في الولايات المتحدة .

- هل صحيح قررت الدراسة في الولايات المتحدة يا نسيم؟
- نعم، فيجب أن أكمل تعليمي.
- يا نسيم.. هكذا تريد أن تتركنا؟ دعك من الدراسة يا رجل لنبقى في الوطن، فهو أفضل من الغربة.
- أعرف ذلك، لكن لا تقلق، فسوف أعود، والدليل أنت. ألم تعد؟
لم يبق لي ما أرد عليه. كنت أعرف أهمية الدراسة، ولكن الأصدقاء لا يحبون أن يفترقوا؟ ولماذا عليهم التضحية بعلاقاتهم اليومية من أجل الدراسة؟.

بعد أيامٍ كان نسيم زيد في أمريكا. كانت تصلنا أخباره من أخته أولاً بأول. كلما رأيتها بالشارع أسألها :
- كيف أخبار نسيم؟
- بخير، وهو يسلم عليك، ويقول لك سوف يعود.
- حقًّا؟ متى؟
- عندما يتخرج من الجامعة.
أضحك، وأقول لها: نحن بانتظار ذلك اليوم على أحرّ من الجمر.

لم أكن أعلم أن شوقي لعودته سيكون لعنة عليه يومًا ما.. لم أعرف أنني سأتمنى يومًا ما لو لم يعد نسيم، وبقي في أمريكا. ليته لم يعد فعلاً لكان لي هنا اليوم في أمريكا صديق من أيام الشباب.

لمحتها فجأة في شارع صلاح الدين في صيف العام (١٩٨٢).
كانت تلبس الأسود، وتسير شاحبة الوجه. توجهت نحوها بسرعة. ناديتها، وقبل أن تقول شيئًا قلت لها :

- يبدو أن أحدًا من العائلة قد...

بكت، وبدأت تذرف الدموع. قلت لها:

- عظم الله أجركم. شدي حيلك. هل أعرف الميت؟

نظرت في وجهي، واستمرت في البكاء. كانت على وشك أن تضع رأسها على كتفي، وتفرغ كل دموعها المخبأة عليه، ولكنها خجلت من الفضوليين في الشارع.

أعدت سؤالي عليها:

- من الميت؟ هل أعرفه أو أعرفها؟

هزت رأسها.

- لا بأس.. اصبري. من هو يا ترى؟

- أكلّ هذا وتسأل؟ ألم يخبروك؟ ألم تسمع من أحد؟

أصبت بقشعريرة. اهتز بدني. لا بد أنه هو، وإلا فلماذا أسأل؟

- وهل مات هناك؟

- لا.. لقد استشهد؟

لم أصدق! نسيم استشهد في أمريكا؟! سألتها:

- كيف؟ أخبريني.

- لم يبق في أمريكا، فقد عاد بعد احتلال إسرائيل لجنوب لبنان. ذهب من أمريكا إلى لبنان ليدافع عن بيروت. أرأيت؟ ترك فلسطين ليدافع عن لبنان! كأنّ لبنان بحاجة لمقاتلين؟

صدمني الخبر! لم أستوعب ما أسمع؛ من فلسطين إلى أمريكا إلى بيروت العام (١٩٨٢) ليستشهد هناك!

تغير لوني، وأصبت بدوار. شاركتها البكاء، فالبكاء أحيانًا يريح الأعصاب، كأنه ضريبة يؤديها الإنسان لمن يحبهم برضًا من النفس.

سألتها:

- متى سيبدأ العزاء في بيتكم؟

- غدًا الساعة الخامسة.

- حسنا سأكون هناك

ودّعتها وأنا حائر لا أعرف أين أسير. لم يتحمل نسيم خبر احتلال جنوب لبنان، فقرر أن يسافر إلى لبنان في حزيران (١٩٨٢) ليدافع عن بيروت. قال له أصدقاؤه:

- ماذا تستطيع أن تفعل أكثر مما يفعله المقاتلون هناك؟ لا تذهب لأن إسرائيل سترتكب المجازر هناك.

لم يسمع كلامهم، فسافر عن طريق أحد المعارف، وهناك حمل السلاح دون أن يتدرب عليه مجرد تدريبات بسيطة، وكان يدافع عن بيروت.كان يقول لرفاق السلاح:

ـ ليس لي أهل ولا أقارب هنا، ولكنني أشعر أنني أدافع عن فلسطين.. أدافع عن القدس. لن يمروا إلى بيروت إلا على جثتي.

كان آخر أيامه في أحد المواقع الأمامية مع مقاتلين آخرين. فجأة تقدمت دبابة تحاول اختراق الشارع. اختبأ نسيم ورفاقه، وعندما اقتربت أطلق عليها كل منهم قذيفة (آر. بي. جي) فدمرت بالكامل، فتحركت وراءها عدة دبابات يطلقون النار بكثافة كبيرة، فاختبأ نسيم ورفاقه. نظر نسيم إليهم، وقال:

ـ اسمعوا.. لن نتركهم يمروا.. لن يمروا إلى بيروت إلا على جثتي.

المجنزرات تتقدم. لا بد من عمل.

قفز في الشارع فجأة يحاول أن يطلق قذيفة أخرى، ولكن رصاصهم سبق قذيفته فسقط على الأرض. كان يشعر أن ساعته قد حانت. ظل يزحف حتى أصبح في وسط الشارع، وهناك توقف، ثم أسلم الروح.

لم يكن أمام الدبابات في ذلك الشارع الضيق إلا أن ينزلوا لسحبه، ويعرضوا أنفسهم لرصاص المقاتلين، أو يسيروا فوق جثته، فتحققت كلماته: لن تمرّوا إلى بيروت إلا على جثتي.

(آذار - مارس 2006)

❖ ❖ ❖

نـادل فلسطيني
في مطعم إسرائيلي

عندما بدأت الانتفاضة العام ١٩٨٧ كان عدنان يعمل نادلاً (سفرجيًّا) في أحد الفنادق الإسرائيلية، وكان مضطرًا بسبب دعوات القيادة الموحدة للانتفاضة آنذاك أن يتغيب عن العمل في الفندق الذي يعمل فيه استجابة للدعوة بمقاطعة العمل في المشاريع الإسرائيلية، ومع تكرر غيابه، فصل من عمله، وظل بلا عمل حتى شهر نيسان من العام ١٩٨٨.

لم تقدم له الانتفاضة بديلاً، ولم يجد عملاً. ظل صامدًا حتى صرف آخر مليم لديه. صاحب البيت ظل يطالبه بالإيجار. المشاريع العربية لا تستوعب هذا العدد الهائل من العاطلين، فكيف بالعاملين في المشاريع الإسرائيلية؟

بدأ عدنان يستدين من الأصدقاء حتى توقفوا عن إدانته. حاول الهجرة من الوطن للعمل في دول الخليج، ولكن الطريق إلى عمان أغلقت، ولم يعد باستطاعته حتى الهجرة. كانت بيانات القيادة الموحدة تطالب العمال بالعودة إلى الأرض وزراعتها، وكان يسخر لهذه الدعوة؛ كيف يعود إليها وهو لا يملك قطعة أرض، ويعيش في وسط المدينة.

بعد أن ضاقت به الحال، اضطر رغمًا عنه البحث عن عمل جديد في المشاريع الإسرائيلية، فوجد عملاً في أحد المطاعم ليعمل نادلاً فيه. كان العمل في مطعم إسرائيلي غريبًا عليه، فقد تعود على العمل في الفنادق حيث النزلاء معظمهم من الأجانب، أما هنا فالزبائن كلهم من اليهود، وعليه تحمل تعليقاتهم عليه بسبب الانتفاضة.

في أحد الأيام كان المطعم يعج بالزبائن، وكان مشغولاً بتقديم الطلبات إليهم. فجأة جاءه نادل إسرائيلي يعمل معه يدعى (سيمون)، وقال له:

- عندي زبائن عرب من عندكم من القدس. انظر الطاولة رقم سبعة.ما رأيك أن تخدمهم وأنا سآخذ عنك طاولة من عندك لأنهم لا يفهمون العبرية جيدًا، وأنا لا أعرف سوى بعض الكلمات بالعربية.

وافق عدنان على الفور، لكنه استغرب أن يأتي عرب من القدس الشرقية في ظل الانتفاضة المتصاعدة في فلسطين. وبعد ثوان ذهب إليهم ليرحب بهم ويسألهم عن طلباتهم.

عندما اقترب عدنان من الطاولة، خيل إليه أنه يعرف الشخص الجالس هناك. تقدم بضع خطوات ولم يصدق عينيه:

- يا إلهي ماذا أرى؟

لم يصدق عدنان أن أحد الشخصيات الوطنية المحسوبة على الانتفاضة والقيادة الوحدة، والذي كان يطالب الناس بمقاطعة البضائع الإسرائيلية والمشاريع الإسرائيلية يجلس مع زوجته وأولاده هنا في مطعم إسرائيلي!

رحب عدنان بهم بالعربية، فتفاجأوا هم أيضًا به. قال له الأب:

- أهلاً بك. جاع الأولاد ولا يوجد أكل في البيت بسبب الانتفاضة فجئنا لنعشيهم.

ابتسم عدنان. هز رأسه، ورد قائلاً:

- أهلاً وسهلاً. أنا تحت أمركم. سأحضر لكم القائمة.
بعد أن سجل عدنان أنواع المأكولات التي طلبوها، والتي تكفي لعائلة من عشرين لا من خمسة، سألهم:
- هل تحتاجون شيئًا آخر؟
- لا هذا يكفي.
صمت قليلاً، ثم قال لعدنان مازحًا:
- لماذا لم تقاطع العمل في المشاريع الإسرائيلية؟
فوجئ عدنان بالسؤال، ومن شخص يتناول عشاءه في مطعم إسرائيلي. كان يتساءل في قرارة نفسه: هل على العمال مقاطعة العمل رغم عدم وجود بديل للعمل في المشاريع العربية؟ بينما الشخصيات الوطنية تدعم المشاريع الإسرائيلية التي يوجد بديل لها في القدس؟
نظر إليه وقد احمر وجهه، وردّ عليه باسمًا:
- لكي أخدمك بنفسي هنا.

(حزيران ٢٠٠٨)

❖ ❖ ❖

يحكُون في بلادنا !

كان يتأوه من الألم. قال لهم: الوداع يا رفاقي وإخوتي. يبدو أنها اللحظات الأخيرة.
حاولوا أن يخففوا عنه شدة الألم، وقرروا دعوة السجان لنقله فورًا إلى المستشفى. صرخ ممثل غرفة رقم (٢) في قسمنا في سجن بئر السبع في السجان حسكل:
- حسكل، بوينا مهرْ. (قالها بالعبرية) تعال، أسرع.
- ما أتا روتسيه؟ ما كرى؟ (رد عليه) ماذا تريد؟ ما الذي حصل؟
- عندنا مريض في حالة سيئة على وشك الموت. اطلب الممرض لنقله إلى المستشفى بسرعة.
وعد السجان الروسي الأصل بالاتصال بالإدارة، فذهب إلى غرفته، وبعد فترة عاد قائلاً: إن الإدارة سترسل من ينقله من القسم.
أبو جمال كان يعاني من أمراض كثيرة خلّفتها الإضرابات الطويلة عن الطعام، وخصوصًا إضراب سجن نفحة الصحراوي، ومحاولة إدارة السجون بقيادة وزير الداخلية آنذاك (يوسف بورغ) فك الإضراب بالقوة وقمع المعتقلين، حينها أصيب أبو جمال بعد أن حاول السجانون كسر إضرابه وسكب الحليب في فمه بالبربيج المطاطي وسحبه منه لينزل الحليب في رئتيه، وفورًا أدخل غرفة العناية المركزة في السجن، حيث كاد أن يفارق الحياة لولا أن طبيب السجن الجنرال الصهيوني أقسم له

أنه لن يتركه يموت؛ ليس لأنه يريد إنقاذ حياته، ولكن حسب ما قال له بالحرف الواحد: لن أتركهم يجعلوا منك بطلاً قوميًّا.

كان إسحاق في وضعٍ صعب جدًّا. ودّع سكان غرفته، وشد على أيديهم كأنه يودعهم الوداع الأخير. نقلوه وحده، مع أن المريض أحوج ما يكون لصديق أو حبيب يقف معه في تلك الظروف الصعبة، فكيف عندما يكون بين يدي أعدائه، وتحت رحمة ممرضين جنود وضباط ومخابرات يهمهم قتلك، وعلى الأقل قتل روحك المعنوية، وكسر صلابتك وإيمانك بالثورة والوطن والشعب، عندما يحاولون زرع الأكاذيب في نفوس المرضى، وتحريضهم على شعبهم وأهلهم.

نقلته إدارة السجن من القسم لتمتص غضب الأسرى، ولكنها تركته في عيادة السجن، ولم تنقله فورًا إلى مستشفى (سوروكا) القريب من السجن، والذي عادة ما يرسل المرضى في الحالات الطارئة في السجن إليه.

تركوه وحده في غرفة العيادة ما بين الموت، وبين الحياة. كان منهك القوى غير قادر على الحركة. طالبهم أن يفعلوا شيئًا، ولكنهم كانوا يضحكون عليه قائلين:

- نحن ننتظر سيارة الإسعاف.

الوحدة قاتلة، والمرض يضعف الإنسان وينخر جسده، فما بالك بالمرض، والوحدة، والأسر حين تتجمع معا، وبين أيدي سفاحين قتلة، يتمنون موتك كل لحظة؟!

المرض يشتد وطأة. لا أحد يهتم به. بدأ يتطلع نحو سقف الغرفة يعد ما بها من لامبات، ومن كراسي، يعود بذكرياته لأيام سجن نفحة وسجن الرملة. تذكر يعقوب دواني، وعمر القاسم، وعوني الوعري، ومحمود العبيدي، وسليم، وعطا، ومحمد...

- عشر سنوات مرت على أسرنا، فهل سنقضي بقية الحكم، أم سنفاجأ بالثورة تحررنا من الأسر؟

كان أبو جمال يعلم أن هناك مفاوضات تبادل أسرى، وكان يعرف أن اسمه سيكون واحدًا منهم! من يومها وهو يحلم بالحرية.

يتذكر أم جمال مراغة... عشر سنوات ما زالت تنتظر، لا بل لم تترك فرصة للزيارة إلا وزارتني فيها. قاست من أجلي الكثير.. ضحت لي وللوطن.. تحملت كل أعباء الأولاد. كانت لهم الأب والأم. عندما كانت تزورني كانت تشعرني بالحنان والدفء. كانت تشحن بي الأمل والعزيمة. تحملت الكثير. آن الأوان أن أرى البسمة على شفتيها. يا الله كم أشتاق أن أضمها لصدري، عشر سنوات لم أرها إلا من وراء القضبان من وراء الحديد لم أستطع أن ألمس سوى أصابعها. ياه يا أم جمال يا حبيبتي.. يا أروع نساء العالم.. كم أنا بحاجة إليك الآن؛ بحاجة أن تكوني بجانبي، معي، فأنا من عينيك وعيون أولادنا أستمد شجاعتي. كيف حال الأولاد؟

المرض يزداد. آه يا رب رحماك، فهل حانت ساعة الوداع. أصحيح أنني لن أرى جمالاً بعد اليوم؟! يا رب إنْ كانت قد حانت ساعة منيتي، فاسمح لي على الأقل بزيارة واحدة أودع فيها أم جمال والأولاد، وإن مت قبل ذلك فأنا أستودعك إياهم.

كنا في القسم وفي السجن نغلي، فقد وصل الخبر كل الأقسام؛ كنا نسأل كل ساعة عن أبي جمال، والإدارة تقول إنه في المستشفى. لم نصدق، فبدأنا بأول إجراء نضالي حيث أعدنا وجبة الغذاء.

مساء اليوم تقريبًا جاء إلى قِسمنا أبو مهادي ممثل القسم من الأسرى، حيث أبلغ مسؤولي الغرف أن الإدارة أعلنت استشهاد الأسير إسحاق مراغة.

- مات أبو جمال مراغة، ابن القدس الوفي.
- مات شهيد نفحة مع وقف التنفيذ (هكذا كنا نسميه لأنه كان على وشك أن يموت.)
- مات البطل.
- مات الرفيق، الأخ، الصديق، الأب، الزوج.
- مات فبكى الأسرى في كل السجن.

بكيت معهم. لم أتخيل أن الأسير الذي قدمت لزوجته العام (١٩٧٨) هدية رمزية في نادي الموظفين في القدس تقديرًا لجهودها، وتعبيرًا منا عن تضامننا مع أهالي الأسرى، سوف

ألتقيه بعد سنوات في السجن، وسوف أبكي هناك على استشهاده!

يا لهذا القدر! بدلاً من اللقاء في ربوع القدس التقينا في (ربوع) سجن بئر السبع!

في السابع عشر من تشرين ثان- نوفمبر العام (١٩٨٣) أقيم في إحدى الغرف الكبيرة حفل تأبين الشهيد إسحاق مراغة؛ كلمات.. أناشيد.. شعر، وفي الختام وقف الجميع ينشدون بصوت واحد كلمات محمود درويش:

(يحكون في بلادنا
يحكون في شجنْ
عن رفيق لي مضى
وعاد في كفنْ
وعاد في كفنْ

يحكون عن اسمه
لا تذكروا اسمه)

ثم أكملنا بصوت عال:

(خلّوه في قلوبنا
خلّوه جرحًا راعفًا
لا يعرف المحنْ
لا يعرف المحنْ).

❖ ❖ ❖

الفهـرس

- الطريق إلى القدس ١١
- أبـو الـدوح ٣٩
- الأمـن الـوقـائي ٥٥
- البطاقة الـزرقـاء ٦٩
- الجنـدول ٧٩
- الحـاج سمـور ٩٣
- الـخـائـن ١٠٣
- الـرسـالة السِّريـة ١١١
- الـسـلة يا أستـاذ ١٢٣
- الـمُطـارَد ١٣٣
- انتحـار منـال ١٣٩
- بـاب خـان الزيت ١٥١
- ثـلاث وردات ١٦٣

▪ جـراح لن تندمل ١٧٣
▪ حـدث في العيزريّة ١٨٣
▪ زرّي مقطـوع ١٨٩
▪ شعبان و صابر ١٩٥
▪ شهيدًا عند ربـِّه ٢٠٥
▪ لـماذا يا رفيـق؟ ٢١١
▪ مترجم إلى السماء ٢١٩
▪ محمود و رجـال البوسطة ٢٣١
▪ مطلوب للتجنيد في إسرائيل ٢٤١
▪ ملك الأنتيكة ٢٦٣
▪ مـن أجـل نـدى ٢٧٣
▪ مـن القدس إلى بيروت ٢٨٣
▪ نـادل فلسطيني في مطعم إسرائيلي ٢٩١
▪ يحكُون في بلادنا ! ٢٩٧

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 - (+2) 0188890065

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤   (+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥
www.shams-group.net